محمود تيمور



دنيا جديدة

محمود تيمور

دنيا جديدة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٤٢٢٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوريك بالقصر الحسينية

دنيا جديدة !...

غادر المنزل وقد بنى عزمه على أن ينفذ فكرته ! . . .

وسار فى الطريق زائغ النظرات ، وفى رأسه أتون يتأجج .

ولكن خطواته كانت متلاحقة محكمة تدل على عزيمة واقتدار ؛ كأنها خطوات جندى ماض إلى حكومة القتال ! . . .

إنه يشبه الجندى فيما يقصد إليه ، من أداء مهمة وخوض معركة ، ولكن الفارق بينهما أن الجندى يمضى وهو فى فسحة من الأمل ، أن يعود ظافراً ، يعانق الحياة ، ويقتطف ما فيها من متع ومباهج ! ... أما هو ، فيسير فى مثل صلابة الجندى وعزمته ، بَيْد أنه يعلم علم اليقين أن ذهابه إلى غير رجعة . . . خوض معركة يخرج منها مهزوما ، قد طواه الردى ! . . .

ولكن كيف يجد نفسه مهزوما ، إذا انتحر ؟ . . .

أليس الموت ، فى حقيقة الأمر ، أكبر انتصار على الحياة ! . . . وماذا لقى من هذه الحياة ؟ . . . إنها لحرباءة خبيثة ، طالما خادعته وغررت به . . . هذه الحياة لقد كانت تتفنن فى الكيد له ، وتسخر من إخفاقه ، وتذيقه ألوانا من التعذيب والإيلام ! . . . هذه الحياة

لقد كانت تركله وتطؤه ، فينهض محنى الظهر ، معفر الوجه ، ليخفض هامته ثانية لتلك الجنية اللدود ؛ فلا تلبث أن تنحنى عليه بسياطها حتى يخر منخنا بجراح الخيبة والإذلال ! . . .

هيهات للحياة أن تنال منه منالا بعد اليوم . . . إنه سيقف أمامها وجها لوجـــه ، ويقول لها : لن تستطيعى منذ الآن أن تستعبدينى وتستمرئى شقائى ! . . . كلا ، لن تستطيعى أن تفعلى شيئاً معى ! . . . ستقفين أمام رفاتى، قليلة الحيلة ، عاجزة الوسيلة . . . مهما تحاولى فليس فى مقدورك أن تلحقى بى أى أذى ! . . . إنها ساعة انتصار لى . . . أليس الموت فى حقيقة الأمر أكبر انتصار على الحياة ؟ . . .

وحث خطاه إلى حيث ينفذ فكـــرته . . . ولـكن أية جهة يختــار ؟ . . . إنه يدرى إلى أى ميدان يذهب ؛ ولـكنه لا يدرى أى مكان فى هذا الميدان يحل فيه ؟ . . .

بأى أسلوب ينتحر ؟ . . .

ما أكثر الوسائل ! . . . أيختار « الترام » ؟ . . . ومثل فى ذهنه « الترام » ، وهو يقطع الطريق مثقلا براكبيه ؛ كأنه أتان حُبلى مكدودة . . . أتان عجفاء نخرة العظام . . . أيسلم لهذه الأتان رقبته طائعا مختارا ؟ ... أيرضاها لنفسه جلاداً ؟ . . .

هناك السم الزعاف . . . هناك المدية الماضية . هناك أفانين مما يكفل له بلوغ مأربة المنشود . . . وأشرق وجهه بغتـــة إشراقة الظفر . . . لم لا يكون النيل جدثه العظيم ؟ . . . هذا الإله القادر ، الذى يتدفق منذ الأزل ، يشق الصحراء الجرداء ، فيحيلها جنات فياحة ناضرة . . . إنه ليلق بنفسه عن طيب خاطر فى هذا الفيض الزاخر بالخيرات ! . . . ما أسعده حقاً إذ يشعر بأن ذراعى هذا الأب الشفيق ، تضمانه إلى صدره فتخفيانه ؛ فلا يلبث أن يفنى فيه ! ... أى فخر أعز من أن يغدو جزءا من ذلك الإله فى قوته وعظمته ، يشاركه فيما يغدق على البلاد من نعم وبركات ؟ . . .

لقد جرب حظه فى الحياة مرات ومرات ، فباء بالإخفاق المر ! . . . هو الإخفاق دائماً ... ذلك الوحش الماثل الذى تجمعت فيه كل مظاهر القسوة والعنف ، ذلك الحيوان الضخم ، الذى يماثل الحيوانات المنقرضة ، التى عاشت قبل التاريخ . . . إنه ليلاحقه حيثما حـــل ، يراه تارة رابضاً أمامه ، وهو فى ساحة الامتحان ، يرمقه بالنظر الشزر ، ويبتسم له ابتسامته النكراء ، ويكشر عن أنياب قذرة مسنونة كرءوس الحراب ... ويخيل إليه دائماً أنه يسمع منه فحيحا ؛ كأنه يقول له : هأنذا لك بالمرصاد ! ...

هو الإخفاق دائما ... يساجله أبداً فى كسب رزقه ، فى تحقيق

مآربه . . . وأخيرا وقد سقط مريضاً وطالت به العلة ، كان يرى ذلك الحيوان المنقرض ، حيوان ماقبل التاريخ ، وقد أرسل خرطومه يستنزف دمه على مهل ، ويستل روحه فى بطء ! . . . لقد لازمه ذلك الحيوان فى مرضه ، ولم يدعه إلا خرقة إنسانية مهلهلة ، لاحيوية فيه ولا نشاط ! . . .

ماذا يستحق فى هذه الحياة أن يعيش من أجله ؟ . . . إنه يحيا فى بيت خاله مع أسرته ، يحيا معهم كالغريب المنبوذ ... طالما قرع سمعه قول خاله : لوجه الله أطعمك ، وآويك ، فإلى متى ؟ . . . وطالما تعالت صيحات التذمر والسخرية ، فيخالها دخانا كثيفا ، يتعقد ويحيط به ، حتى لا يستطيع أن يتنفس ! . . . وهذا الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، مترصد له أبدا ، تتلاعب ابتسامته النكراء على فمه الغليظ الأدكن ، وهو يكشر عن أنيابه القذرة المسنونة كرءوس الحراب . . .

وسار الفتى ، ثم سار حتى دنا من ضفة النيل ... إن التخيلات الشامخة ، بهاماتها الملوكية ، لترف بأغصانها ترحابا بمقدمه ! . . . وإن الشمس الغاربة ، بقرصها المتوهج : لكأنها نار وليمة تشب لاستقباله ! . . . النيل ! . . . نعم ، النيل !! . . . فى عبابه الزاخر يودع عالم الشر والفناء ، ويستقبل عالم النعيم والخلود ، وهو محوط

بتلك الأناشيد العذاب ، ترددها له أطياف لا تراها العيون : —
تلك الأناشيد التى لا يسمعها إلا من أقبلوا على الأبدية ، بأرواح
تخلصت من الشوائب ، وشملها الطهر والصفاء ! . . .

وأصبح من ضفة النيل على قيد خطوات ، وأحس بقدميه
تتثاقلان ، وقد بدأ يغشاه سحر غريب ... واختار مكانه الملائم ..
ووقف هناك وقفته الأخيرة ، وعيناه تحدقان فى الأمواج المتدفقة ،
يحاول أن ينفذ إلى أعماقها . . . ماذا وراء هذه الأمواج التى
تتراقص على متن النهر ؟ . . .

وانبعثت ضجة غير بعيدة منه ، فتلفت هنيهة حوله . . . إنها
حركة الطريق . . . أناس بين غاد ورائح ومركبات تضج بعجلاتها
وتصيح بأبواقها . . . إنها ضجة الحياة ، ضجة الدنيا ... وابتسم
ابتسامته هازىء ، ثم عاد يحدق فى الماء ! ...

أحقا أن هذه الدنيا ليست جديرة أن يعيش من أجلها ؟ ...
إن الناس من أجلها يعيشون ، إنهم يسعون إلى الرزق كادحين
مجاهدين ... أليس هو مثلهم إنسانا ؟ ... ألا يستطيع أن يسعى
كما يسعون كادحاً مجاهدا ؟ ولكن هذا « الإخفاق » هذا الحيوان
الهائل الكريه : حيوان ما قبل التاريخ ... إنه رابض فى طريقه يسد
عليه المسالك ، ولن يستطيع هو بخور عزيمته أن يتغلب عليه وينحيه

عن الطريق ... أفى مقدور بعوضة أن تساور الأسد الجبار ؟ ...
إنه ليشعر بالامتعاض والتأفف من نفسه . لماذا رضى أن يكون
بعوضة ، على حين يرى الناس من حوله أسودا ضارية ؟ ...

وأطال التحديق فى الماء أمامه ...

وتحفز ليقفز ، فإذا به يسمع حركة طارئة ... حركة تصحبها همسات وأنات . . وتلفت حوله ، فتبينت عينه فى ظلمة الغروب شبحا يضطرب على حافة الشاطىء عن كثب منه . . . وألفى نفسه يكمن خلف جذع شجرة ، وأخذ يرقب الشبح من مكمنه ، ويحدبصره فإذا الشبح فتاة تتعثر فى خطاها . وبين يديها لفيفة تضمها إلى صدرها ضمة رحمة وحنان ... وتوقفت الفتاة ، وأطالت النظر إلى اللفيفة ، ثم مهدت لها مكانا بين الأعشاب النابتة على حافة الشاطىء ، ووضعتها فى رفق . وما لبثت أن انحنت عليها تقبلها فى شغف ، ونهضت بغتة مندفعة صوب النهر ... وفى لمحة هوت فى الماء ، فانبعث لسقوطها صوت مكتوم مفزع ؛ كأنه صوت وتر فى قيثارة شد إلى أقصاه حتى انقطع ! . . .

وألفى الفتى نفسه يهوى حيث هوت الفتاة ، ويغوص وراءها ، فى ذلك الخضم المتلاطم . . . وبعد جهد ومغالبة استطاع أن يصل إليها ، وأن يعود بها إلى الشاطىء ، خائرة القوى ، فاقدة الوعى ! ...

وأخذ يسعفها بما هدته إليه الفطرة ، ونجح فى مسعاه : فإذا الحياة تضطرب بين جوانح الفتاة . فوضع رأسها على ركبتيه ، وعيناه تتوسمان وجهها ، وقد بدأت مواكب الليل تتزاحم إثر النهار الغارب تطارد فلول الضوء ! ... ولكن تلك المواكب لم تلبث أن وقفت خاشعة ، أمام ذلك الملك العظيم ، الذى بدأ يعلو من الشرق قرصا أرجوانياً ، يتهادى فى روعة وجلال ... فتصاغرت أمامه جحافل الليل الزاحف ، وأخذت تتزايل . . .

وسطع الضياء الفتى على وجه الفتاة ، فإذا بمحياها هادىء لم يزده امتقاع الإعياء إلا وسامة على وسامة . وكان شعرها البليل مسدلا حول رأسها تتناثر خصلاته على كتفيها ، وقد تدلت بعض هذه الخصلات ، تخفى ما ظهر من صدر ناهـــد ، كان قد شق القميص وأسفر ! . . .

ورفعت الفتاة جفنيها ، فإذا عينان زرقاوان تماثلان زرقة السماء الصاحية ، تختلج أهدابهما الوطاف حولها ، كأنها أحراس ساهرون على ذلك النبع الفياض . . .

ونهضت الفتاة برأسها قليلا ؛ وهمهمت جزعة :

أين أنا ؟ . . .

فمسح الفتى على شعرها ، وقال فى لهجة ظفر ووثوق :

أت فى حرز أمين ! . . .

وتلاقت عيناهما فى ذلك الضوء الفضى الساجى الذى يشيع فى النفس الأمن والصفاء ... وجعلت الفتاة ترنو إليه فى سهوم ؛ وهى ما برحت فى شبه غيبوبة تختلط حياتها الحقائق بالأحلام .. وأطال الفتى نظره إلى عينها ، وأحس بأن هذا النبع قد أخــــذ يفيض بالخــيرات ، وإذا هو يرى فيه عوالم جــديدة ، ذات سماوات وأرضين ، لا عهد له بها من قبل ، وإنه ليسمع من ذلك النبع الفياض خريراً لم يمرّ بسمعه أبهج منه قط ...

ومرت على الفتى فترة ؛ وعيناه موصولتان بعينيها ... إنها الحياة جياشة تتفتح له ؛ حياة بعيدة عن واديه القديم بقفره وجدبه . . .

واعتلجت فى رأسه شتى الخواطر والأفكار . . . ياللعجب ! . . . إن الله قد بعث به إلى النهر لينقذ حياة هذه الفتاة التاعسة . . . هنالك قوانين قاهرة ، لا يستطيع المرء أن يقع لها على تفسير . . . ألسنا مسيَّرين حقاً لا مخيرين ؟ لقد أنقذ روحا بشرية من صنع الله . . . أنقذ مخلوقاً من بنى جنسه ، رد إليه الحياة ثانية ، بعد أن أوشكت أن تفر عنه . . . إنه غالب الموت فغلبه فى هذه المعركة . . . إن الله أراد لهذه الفتاة الحياة ، فكان هو فى ساعته يد الله ! . . . إنه يحس قوة الله فى جسمه ، وعظمته تسرى فى أوصاله ! . . .

واهتز الفتى اهتزازة اعتداد بنفسه واعتزاز . . .

وسمع الفتاة تهمهم :

لم أنقذتنى يا سيدى ؟ . . .

فقال،وعيناه مازالتا موصولتين بعينيها :

لم يكن لك أن تجرى فى حق نفسك هذا الجرم . . .

واستمع لصدى صوته فى نفسه ؛ فكأنه يستمع إلى إنسان آخر يتكلم ، كأن جديد ينطق فى لهجة جديدة ! . . .

أجابت الفتاة :

وهل من العدل أن يحيا المرء فى هذه الدنيا ، يعانى الظلم ويشقى ؟ . . .

— ليس لنا أن نتخير ، بل أن نصبر على ما نحن فيه . . . ثم نجاهد ، ونكافح ، ونأمل ! ! . . .

— لقد جاهدت ، فبؤت بالخيبة ، وفقدت كل أمل . . .

حاولى أن تخلق الأمل خلقــا ، وأن تتصيدى السعادة تصــيدا ! . . .

— حاولت فأخفقت . . .

— حاولى أيضا ولا تيئسى . . . يجب أن يكون فى قلبك إيمان بأن الحياة ليست عبثا . . .

— كيف ؟

— فكرى لحظة . . . إن الله لم يخلقنا فى هذه الدنيا سدى ، وإلا فما هى حكمته فى أن يقذف بنا فى هذا التيار ، نصارعه ونصاوله، دون جدوى ؟ . . . إن لكل منا رسالة يؤديها ! . .

— وهل لمخلوقة حقيرة مثلى رسالة ؟ . . .

— أحقر كائن فى الأرض له رسالة يجب أن يؤديها ، وإن خفى علينا وعليه أمرها . . .

وغمغمت الفتاة :

رسالة ؟ ... أنا أؤدى رسالة ؟ . . .

وبغتة تلفتت حولها متفزعة ، وصاحت :

طفلتى !

وهرع الفتى والفتاة إلى مكان اللفيفة ، فألفيا الطفلة مدرجة فى لفائفها ، ناعمة العين بالنظر إلى القمر ، مبهورة بضوئه اللألاء، تتحرك يدها فى فرحة ، وهى مستغرقة فى مناغاة ومناجاة . . .

فالتقطت الأم طفلتها ، واحتوتها فى صدرها ، وجعلت تغمرها بقبلها الحنون . . .

ثم شرعت تقص على الفتى قصة ذلك البؤس الذى دفع بها إلى القضاء على نفسها ... إنها قصة شائعة تتلخص فى كلمات قلائل :

حب ، فعبث بالفضيلة ، فافتضاح ، فطرد من بيت الأسرة ، فتخل من الحبيب . . .

فأمسك بيدها يلاطفها وهو يقول ، وقد أشار إلى الطفلة ، يداعب وجنتها :

ألا تعترفين معى بأن فى الحياة نواحى جميلة طيبة ، وأن الله لم يخلقنا فيها سدى ؟ . . .

كان الفتى قد ترك فى بيته كتابا ، يخبر أهله فيه بأنه معتزم التخلص من الحياة ، وكانت الفتاة قد تركت أيضا فى بيتها مثل هذا الكتاب .

إذن لقد انتحرا . . . تخلصا من دنياهما القديمة التى شقيا بها ، وشقيت بهما حينا من الدهر . . .

لقد أنقذ الفتى روحين ، وإنه لمسئول عن مصيرهما . . .

ونهضا . . . وطفقا يسيران ، هو يخطو مرفوع الهامة . تتقد عيناه عزما وحيوية ، وهى بجانبه معتمدة على ذراعه ، يشرق على محياها سيما الطمأنينة . . .

إنهما يسيران ! . . .

يسيران ، وقلباهما يخفقان بشعور واحد ، شعور نقى ناصع ؛ كضياء هذا الكوكب المتألق الذى يغمرهما بفيضه اللؤلؤى . . .

يسيران نحو دنيا جديدة ! . . .

شيخ الخفر

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها فى ضيعة ضئيلة الشأن . تكاد تنتهى بها تخوم العمران ! . . .

كان الحياة فى هذه الضيعة تجرى على الأساليب العتيقة فى الفلاحة والإدارة ، بيد أنها مع ذلك كلها كانت قنوعا بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان ! . . .

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلوها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج ، ومودة وإيلاف ، فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام ! . . .

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، فحل من قومه محل الأدب من بنيه ، يضمر لهم الحنان والمرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم فى عدل وإنصاف . . . وهو على الرغم من علو سنه ، جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز فى مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة ! . . . فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته فى أمره ونهيه . . .

نهض الناظر بواجب منصبه ، معولا على نفسه ، غير مفتقر إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ... فإذا رغب فى عون دعا إليه ارتجالا بعض الرفاق ؛ فيبتدرونه ويعينونه ، فى غير كلفة ولا تعقيد ! ... ومن ثم كان فى غنية عن موظفين ، تناط بهم أعمال ...

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناءة ، فكان يزهى بذلك بين الحين والحين ، ويردد كلمته الخالدة :

كل شيء يجرى بالبركة ! ...

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة فى شيوع الأمن واستتباب السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة فى عهد ذلك الناظر المبارك ! ...

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه فى ذهلة ووجوم ؛ ولكنها استلهمت فى رزئها الكبير إيمانها العميـــق ، وودعت بموت هذا الناظر عهدا مذكورا بالخير ، وتطلعت إلى عهد جديد ، لا تدرى مصـــيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال دوام ! ...

وصبحاً هبط الضيعة شاب ، فى ميعة الصبا ، يرتدى الحلة الإفرنجية ويحمل على رأسه القبعة المجنحة .. فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع

العامة ، من هو الخطا ، مدلا بما يتميز به عن هؤلاء الناس ، من كسب العلم والتحضر ، وفى يده سوط صغير ، يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال . . .

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد ! . . .

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم يتفحصونه فى دهشة وعجب ! . . . ليس عهدهم بعيدا بناظر ضيعتهم الراحل . . . ولقد استقر فى أذهانهم أن « الناظر » لا بد أن يكون على غراره : شيخا أشيب ، يعتم على لبدة ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر . . . فما بال هذا الفتى الأمرد ، يدّعى ما ليس له بأهل ؟ . . .

وفرقع الناظر الجديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :

أين حضرة المعاون ؟ . . .

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ! . . .

فاستأنف الناظر صيحته السكراء . قائلا .

أقول لكم أين حضرة المعاون ؟ . . .

فتعالى همس القوم فى حيرة وتعجب . . . وبعد لأى ، برز من بين الصفوف شيخ يخب فى « زعبوطه » ، ورأسه يتط من تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المغضن ، يقول :

ليس لدينا معاون ! . . .

فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :

ماذا تقول ؟ ... أضيعة بلا معاون ؟ . . .

فأجابه الشيخ ركين اللهجة :

عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب . . .

فارتفعت جعجعة الشاب وهو يقهقه ، وفرقع ثانية بسوطه قائلا : علىّ بأمين المخازن ! . . .

فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه قائلا : وهذا أيضا لا وجود له ! . . .

ـــ أتزعمون أنكم لا تعرفون رجلا ، له هذا اللقب أيضا ؟ ...

ـــ صدق أننا لا نعرف له من وجود . . .

فاحتقن وجه الشاب ، وصاح فى صوت الثائر المحنق :

ومن عنـــده مفاتيح المخازن ؟ . . . أتدعون أنكم لا تعرفون للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟ ! . . .

فشخص الشيخ ببصره ، قائلا :

هوّن عليك يا بنى . . . فى الضيعة مخازن لها مفاتيح ؛ ولقد كانت فى حوزه الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلمها ؟ . . . إنهـا أمانة عنـــدى ! ...

وأنت ... من تكون ؟ ...

ـ أنا شيخ الجامع ! . . .

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

ما شاء الله كان ! . . . مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع ؟ . . . هاتها يا رجل ! . . .

فانصرف الشيخ ، ليأتي بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الأرض جيئة وذهوبا ، وهو يتلفت حوله تلفت المتمعض المشمئز ، وجعل يغمغم :

فوضى ! . . . فوضى ! ... يبدو لي أنه لابد أن أنشىء الضيعة إنشاء جديداً ! . . .

ثم صاح بالجمع ، قائلا :

أليس في الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه ما أريد ؟ ... ألم يكن للضيعة كاتب ؟ ...

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

كان المرحوم يدعوني أحيانا لأقيد له بعض حساب الضيعة ...

فجأر الناظر يقول في تهكم :

الحمد لله ... وجدنا أخيرا من نسأله ...

وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشزر ، ثم أشار إليه قائلا :

تقدمنى إلى الإدارة تتصفح الدفاتر ...

وهنا لك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورفا عليه بعض الأوراق والدفاتر . تعلوها غبرة ، فاستنكف أن يجلس ، ولبث واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلق عليها خواطفه النظارات ، ثم يقذف بها يمنة ويسرة فى تأفف وازدراء !! ...

وبينا هو كذلك ، إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى صاح مقهقهاً :

مفاتيح من خشب ؟ ... فى أى زمن تعيشون ؟ ...

وازورّ ببصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقفه أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :

سترى الضيعة عجبا . . . لأنقلنها من عهد جهالة وظلام ، إلى عهد حضارة ونور ! . . .

وعلا بيده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلا :

علىّ بشيخ الخفر ! . . .

فطأطأ الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما . . .

ولمـــا طال بهما الصمت ، صاح الناظر وقد بلغت به

الحيرة والعجب كل مبلغ :

أتجسران على أن تدعيا أن ليس فى الضيعة خفراء ؟ . . . حراس ؟

فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلى محياه المغضن ، تكسوه طمأنينة الإيمان ، ثم همس بقوله :

الحارس هو الله !

فتمرقع الناظر بسوطه فرقعة ريع لها الشيخان ، وبصق بصقة هوجاء ، وانفتل من الحجرة كالسهم المارق . . .

اعتكف الناظر الجديد أياما فى مثواه لا يريمه ، وهو منكب يدبج تقريرا مسهبا فى شأن الضيعة ، وما تفتقر إليه من خطة إصلاح انتشالا لها عما هى متردية فيه من فوضى وخراب ! ...

وقد ترادفت فى تقريره كلمات ، لم يربدا من الإلحاح فى بيانها والإشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئوليه » ، و « تعيين جهات الاختصاص » و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » ! .

وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة خفر نظامية ، تكون عونا للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها الجسام ، والضرب على أيدى من تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى طريق الإصلاح والتعمير ...

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة فى العاصمة ، ونهض

يستنشى نسيم الراحة والاستجمام ؛ كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار ، الذى رسم خطته فى تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ؛ لتحقيق أول خطوة فى خطة الإصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر ...

وكان أول ما عنى به اختيار زى للخفراء الجُدُد ، يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى ، حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون فى اختياراته «السيكلوجية» لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة ! . .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخير جمعا من الفتيان ، توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخا ؟ . . . وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته ، التى يعتز بها وينزهها عن الزلل . فوقع اختياره على فتى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم ، وإنما هى قوة بصيرة الناظر الشاب ، رأت فيه مالم ير سائر الناس ..

ووقف الناظر الشاب ، أمام صف الخفراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به :

لقد اخترتك شيخا للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها . . .

إن الجندية أساسها الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش ! . . .
وعلى كل أن يلزم حده . وأن يعرف واجبه ! . . .

وفى اليوم التالى ، تجلى شيخ الخفر فى « الدوّار » يزهو ببلدته التى حملت شارة الرياسة ، وفى يده هراوة صلبة فارعة ؛ كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخطر فى معطفه السابغ الأدكن ، وئيد الخطا ، وخلفه شرذمة الخفراء ، يعلو وجوههم البشر ، وهم معجبون بما يكتسون من زى جديد . . .

وما إن توسط الخفراء ساحة « الدوار » حتى أهل عليهم الناظر الشاب وفى يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم وقف متهلل الوجه تتألق عيناه ، وصاح :

انتباهـــا ! . . .

وابتدأ معهم حصة « التدريب » فتعالت دبدبة الأقدام ، وترامت السواعد تنثنى وتنبسط ، وتحركت الأجسام تعلو وتهبط ، وتعقد الغبار فى الجو كأنما أثارته حرب ضروس .

وفى أثناء تلك المعمعة كان الناظر الشاب يجأر بصوته فى الفضاء ، فتتردد أصداؤه فى الأرجاء ، إذ يقول :

إلى اليمين در ! . . .

إلى الأمام سر ! . . .

خطوة إلى الخلف !...

أربعات تشكيل !. .

سريعا قف !. .

تعظيم سلام ! . . .

وكانت سطوح « الدوار » وأسواره ، قد عششت على حافاتها زمر من الصبية تتطلع ، وقد بهرها ماترى من منظر عجيب ! . . .

لبث الناظر الشاب يمارس التدريب ساعة من نهار ، ثم استخلف مكانه شيخ الخفراء ، يواصـــل العمل على النحو المرسوم . . . وانصرم النهار ، وشيخ الخفر مجد في تدريب فرقته ، لاتهدأ له حركة ، ولا يخفت له صوت ! . . .

وراح إلى داره فى غيوب الشمس ، منشقق الحلق من متابعة الضجيج والصياح ، منهوك القوى ، تكاد تنفصم ركبتاه من طول الانثناء والدوران ! . . . ولكنه على الرغم من ذلك ، أقبل على الدار مشرئبا ملتمع العين ، فاستقبلته زوجه ، والتف حوله بنوه ، يتحسسون بمعطفه ، ويتواثبون عليه ، تطلعا إلى لبدته ذات الشارة الحمراء ...

فطفق الرجل يتحدث إلى زوجه فى مهام منصبه ، وكيف أن الجندية أساسها الطاعة والنظام . . . ومالبث أن بدا فى إشاراته وحركاته ونبرات صوته محاكيا ناظر الضيعة الجديد . وجعل

يدرس فى أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التى صافحت سمعه أول مرة فى هذا اليوم : من مثل «أربعات تشكيل» «خطوة إلى الخلف» «تعظيم سلام» ... فكانت أسرته تصغى إليه فى نشوة والعيون إليه رانية ! . . .

ولما حضرت صينية العشاء، وتحلق حولها الجمع مفترشين الحصير، أبى رب الدار إلا أن يحضر واله، مقعدا يرتفع به عن أديم الأرض ! . .

استنفد تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلما فرغ من جانب عرض له جانب جديد . . .

وكان لا يسير فى الضيعة ، أو يجوس خلال الحقول ، إلا مصطحبا شرذمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفو خطاه.

فأما شيخ الخفر ، فظل يتلقى تعاليم الناظر فى شأن مهمته ، وينهمك فى تنفيذها بين مرءوسية فى همة ومضاء ، فإذا أتم عمله ، واتخذ سبيله إلى داره . أحس الأعين ترمقه بنظرات خشية وتهيب ، ويرى الصبية لا يكادون يلمحون شبحه حتى يلوذوا بالفرار مخلين له وجه الطريق ! . . .

ويوما ، وهو يدرب فرقته ، لم يرض عن أحد الخفراء ، ورماه بالتقصير ، وجاوز فى تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه وأصلب عودا ، فلم يحتمل ذلك الخفير أن أغلظ له فى القول ، وما

هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر ، وهوى على صدغه بلطمة شديدة ، وسرعان ما التحم الخصمان ، واستبد بهما العراك . . . .

وانتهى إلى الناظر الخبر ، فقدم على عجل ، وفرق بين المتضاربين ، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير ، فصلا مشمولا بالنفاذ لأنه خالف أول مادة فى قانون الجندية ، وهى الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش . . .

وتقدم إلى الصف فانتزع الخفير منه ، وجرده من شارة الخفارة ، ومن زيها الرسمى ، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته ، وينتزع منه ما معه من السلاح ! . . .

ومضى الخفير الطريد مهيض الجناح ، يتضرم قلبه حقدا وضغينة . . . وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الخفراء يصطلون ويخوضون فى حادثة النهار ، فقال أحدهم :

ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحدا منا ! . . .

فأجابه رفيق له :

ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة ! . . .

فصاح ثالث :

مهما يكن أمره ، فما يجوز لأحد أن يهين خلقة الله ! . .

فقال الأول :

الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أهلا لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتدارا وقوة .

فقال الثالث :

حقا خدع الناظر فى شأنه ، وسينتبه إلى خطئه فى اختياره .

فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضنينا :

لا تنسوا أن مرتب شيخ الخفر ضعف مرتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجعجعة والتأمر .

ولمح الجمع شبحا فى الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصيته ، فإذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب . . .

وكثر بينهم همس ، تخلله فحيح الكيد والدس ! . . .

تقضت أيام ، لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة ، أو يرفع إليه ظلامه ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام ، تحت ستار من الأسرار ! . . .

وتواصل العمل فى تدريب الخفراء ، بهمة ونشاط ، وأحس شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتتابعت منه صنوف الإهانات من ركل وصفع وطرد ، يسخو بها على مرءوسيه فى تجن وتقول وادعاء ، واجدا من ناظر الضيعة ظهيرا ، يواليه بالرضا والتأييد . . .

وَسرَت بين سكان الضيعة هيبة شيخ الخفر وجاهه ، فتقرب إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزلفى ، وأصبح بيته مقصداً لطلاب الشفاعات فى شئون الضيعة ، ما يتصل بإدارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والإتحافات من خيرات الريف ! . . .

ومرة عنف الناظر بشيخ الخفر ، فى بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدت عليه بوادر التنمر ، ونسى – فى غشية الزهـــو والسلطة – أنه بين يدى رئيسه ، وتضاءلت فى مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية ! . . .

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الخفر ، إلى جفوة تطاير غبارها ، وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصافح الناظر وتماسيه ، مهيبة به أن يضع حداً لذلك الجبار العنيد الذى عاث فى الضيعة فساداً . . .

وفكر الناظر فى أمر شيخ الخفر طويلا ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب ! . .

وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته . متنفخا فى جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع ، يرزحُ تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذى يقوم بأعمال الكتابة فى الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه . . .

وبدت «السين» و «الجيم» تتقاذف بهـــا الألسن فى تلك الحجرة المعتمة المتهدمة ، التى يكاد سقفها يخر ، وقـد وقف المتهم يحاصره جمع من الشهود ! . . .

وانصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ، وقـــد اختنق الجو بالأنفاس ، وتحلب العرق من الجباه ، وبدا الناظر محتقن الوجه ، مضطرم العينين ، ففك أزرار قيصه ، وشمر كميه ، وهو منخرط فى عمله ، يهيمن على نظام الجلسة ، ويلقى أشتاتا من الأوامر والنواهى ، فى حمية وحماس ! . . .

وأخيرا رأى رئيس الجلسة أن يختلى بنفسه ، ليصدر حكمه فى قضية اليوم ، فأمر بإخلاء المكان .

وبعد هنيهة أذن للجمع فى الحضور ، لإعلان الحكم ، فاغتصب الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها ، يسدون منافذها ، ويرهفون الأسماع ! . . .

وما هى إلا أن احتل الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقـة فى يده ، وبعد أن أشبع نهمه من تكرار : « من حيث إن . . » أعلن حكمه القاضى بفصل شيخ الخفر ، وإلزامه دفع غرامة جسيمة . . .

فدوت فى الحجرة ضجة عارمة ، وتعالت أصوات تهتف بحياة العدالة ، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض ! . . .

واخترق الناظر زحمة الناس ، وهو يضرب الأرض بخطا ثقال، ويتلاعب بسوطه فى اهتياج ، وقصد إلى منزله من هو النفس ، ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتمى عليه منسرق القوى ! . . .

وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث فى شأن من يخلف شيخ الخفر المعزول ،فتحلقت الجماعات على المصاطب ،واختلطت الأصوات فى مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى وتعمل على إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذى تعرّفت الضيعة مكانته وأثره فى التسلط والاغتنام . . .

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم الباب فى مساترة وحذر . . .

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل، وطيف الناظر يتراءى وراء النافذة فى جيئة وذهوب . . .

وبكر الناس فى رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت ، مرتقبين مهبط الناظر ،ليروا ماذا بيَّتَ من رأى فى اختيار شيخ الخفر الجديد. فما إن لحوه مقبلا حتى تكأكأت عليه الجموع، تستخبر فى تعريض وتلميح . فمضى عنهم مشمخر الأنف ، محتفظا بالسر العظيم ! . . .

وقصد الحجرة التى كانت أمس محكمة الفصل فى قضية شيخ الخفر ، وهنالك أعلن على الملإ أنه قد تخير الخفير الطريد شيخاً للخفر؛

فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوما ، هضم حقـــه الشيخ المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الإدارة ، فى عهد ناظر الضيعة الجديد ، ومخرجها من حال إلى حال .

وما كادالناظر يعلن ذلك حتى تبدت علائم الدهشة على الوجوه . فما كان فى حسبان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذى طرد من قبل . ولقد رشحت كل جماعة واحداً ، فلم يكن ذلك الرجل أحد المرشحين جميعاً . . .

وظل الهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ، فتراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء . .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه السابغ ، وسوى على رأسه لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده الهراوة الفارعة . . . وسرعان ماشهدت ساحة « الدوّار » ثانية جمع الخفراء ، يزاولون التدريب ، وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

إلى اليمين در ! . . .

إلى الأمام سر ! . . .

سريعا قف ! . . .

تعظيم سلام ! . . .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومىء بالتحية يمنة ويسرة

لمن وقفوا له . وما كاد يلج باب الدار ، حتى استقبلته حشود من القصّاد ، يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهنئة والدعاء ! . . .

تواردت الأيام تروع شيخ الخفر المفصول بألوان الاضطهادات والإهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات والأحقاد ، ممن كان يطغى عليهم الشيخ الأول ، إبّان حَوْله وطوله . . .

وتبدّلت حال شيخ الخفر الجديد . فتراءت في بيته أنعم طارئة ، وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله الشيعة والأنصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوي النفوذ ، يجتذب بلألائه النواظر ، فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ، وتكاثرت حوله الأطماع . . .

وريعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقليع الزروع ، وتغريق الحقول . . . وما إلى ذلك من ضروب الكيد والإيذاء ! . . .

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والاتهام ، تمس شيخ الخفر ، وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضي ساعاته الطوال

يتصفح تلك العرائض ؛ يذيلها بملاحظاته وتقريراته ؛ مجتهداً فى الموازنة والتأويل والاستخراج . . .

واستيقظت الفتنة فى قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحــذر ، وتسلل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يتكيد بعضهم لبعض ، فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشي سوء المغبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبته ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشتى الوسائل ، من بعث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وحبك للمكايد ، وتأليب لنفر على نفر ؛ حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصي الأمور ! ...

وآنس الناظر وميض النار خلل الرماد ؛ فضاعف عدد الخفراء ، وظهر فى المــلإ يحمل إلى جنبه غدّارة ضخمة ، يكمد بها خائنة العيون ! . . .

وكان — فى كل فرصة تلوح له — يؤكد أنه لن يألو جهداً فى إقرار الهدوء والنظام ، فلا نجاح لعمل إلا فى ظلال الأمن والسلام ! ...

وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ، إذ أنهى إليه بعض الخفراء أن سطواً وقع على بيت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين ، حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصرائه ! . . .

وما إن أتم الخفراء قوله، حتى سمعت ضجة عنيفة وتضارب بالعصى الغلاظ ، وقد انطلقت أصوات النساء فى ولولة وتصاريخ انتحاب ...

فأسرع الناظر يرتدى ملابسه وهرول إلى مساكن الضيعة ، فألفى الثورة فى عنفوانها ، والمعركة تدور رحاها حامية الوطيس، فاقتحم الزحام فى جرأة وإقدام ، وراح يزأر بصوته ينهى ويأمر، فلم يعبأ به أحد وذاب صوته فى حرارة العراك والمطاحنة ، وأراد أن يستنجد بغدارته ، فما كاد يمسكها فى يده ، حتى وجدها قد أفلتت منه ، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط ! . . .

وأحس الجماهير تعتصره وتضغطه ، فحاول ثانية أن يصرخ ، فتعثر صوته فى حلقه ، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء والحراس ، فلم يجد أحداً فارغا له ، كل منهم بنصيبه فى المشاجرة مشغول . وضاقت به وجوه الحيلة ، فتراجع نجا بنفسه مما لاتحمد عقباه ، فإذا به عن كثب من فئة تتضارب بالهراوات فى عنف وهوج ... وما هى إلا أن اندمج فى هذه الفئة ، وقد تعاورته الضربات فخر مثخنا بالجراح ! . . .

وفى مرتفع النهار ، شمل الضيعة خمـــود وتخاذل وانهيار . ثمة أناس داخل الأكواخ وخارجها ، طحنتهم المعركة وأدمت أوصالهم، فهم يلمون شعثهم ، ويعالجون جراحاتهم . . . وثمة أمتعة مبعثرة

أمام الدور ، وأنقاض ما تهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب، متشممة فى خوف وحذر . . .

وفى صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يجوب الضيعة ، مستعينا بالله ، ملتمسا منه اللطف فى قضائه . . . وكان يمر بالدور لماما، يعود طريحاً أو يواسى جريحاً ، ويهدئ ثائراً أو يشاور ذا رأى من الأشياخ . . .

وأدى به المطاف إلى إدارة الضيعة، فما إن رآه الشيخ الذى يتولى كتابة الحساب، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن، فإذا هى تلك الحزمة الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :

أبقها معك يامولانا الشيخ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد !. .

المستعين بالله ... (الكابتن هاردى)

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب ، وأحسسنا سحائب الهم والفزع تنعقد فى سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق منا أن يهجر « القاهرة » إلى بعض الأماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السابقين إلى الهجرة .

وقضيت فى الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات فى الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه . وكلما علمت أن غارة روّعت سكان القاهرة أو الإسكندرية ، وكان لها آثار وخيمة ؛ — حمدت الله الذى وفقنى إلى المبادرة بسكنى الضيعة ، لأباعد بينى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة ! ...

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت فى قلبى دبيب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ، وبما يحيط بى من بيئة جديدة علىّ ، فقدت فيها كثيرا من ألوان الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بها ، أغالب الوحدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاصيص ، إذ أقبل علىّ الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكببت على الصحف ألتهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة تزداد سوءاً على سوء ، فانقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد ، يحاول أن يظهر براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمعت عينى ، وهمهمت : أيمكن هذا ؟ ...

وفضضت الغلاف متعجلا ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لى أن ظنى لم يخب ، ورحت أقرأ :

أيهذا الصديق العزيز :

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله — جلت قدرته — وأنهى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر ، وقد شهقت إلى رؤيتك نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات : وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت فى معزلك ، أو بالحرى فى مهربك . وإذ طال تنظارى لك — على غير طائل — استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب .

وإنى مخبرك بمقامى فى «الحسين» وامتداد إقامتى فترة . فإذا فككت عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى « قاهرة المعز » ، فزرنى بدارى « مخشنى الرشيد » نتناول أقداحا من الشاى الذكى ، ونتذاكر أحاديث الماضى الحبيب !... ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان ، فلا تهولنك الأخطار ، وأقبل شجاعا غير هائب ، والله راعيك ! . . .

(أخوك : « المستعين بالله هاردى »
كابتن بالجيش)

وطافت برأسى شتى الذكريات . . . « المستعين بالله » ! . . . « المستر هاردى » !... بل «الكابتن هاردى» !... صديق المستشرق المسلم ، الذى عرفته متحمساً للشرق والإسلام ، وأكثر منا نحن الشرقيين المسلمين . . .

وتوضحت لى ، على الفور ، صورة ذلك الصديق الكريم :

قامة مبسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ، وعينان زرقاوان ، تروعان بصفائهما الشفاف . وصوت هادىء خافت يلقى بكلماته فى تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم فى رأسه ، ولهجة عربية ، تبين فيها فصاحة اللفظ . ولكنها لا تخلو من عجمة محببة . . .

وتوالت الذكريات والصور ... « حي الحسين » ... جولاتنا في أسواقه ، نبتاع الطرف والتحف ، وجلساتنا في نواديه نحتسي الشاي الأخضر ... وكان من عادة صديقي أن يتسمع في هذه النوادي إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدها في دفتره ، الذي بليت أوراقه من طول الطي والنشر ، وتشابكت سطوره من تكرار الزيادة والتعليق ... وداره ، ذلك المبنى الصغير ، الذي أطلق عليه اسم : « الرشيد » : — تبهرك منه السذاجة والطابع الشرقي الجميل ... وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة ، كلما قدم « مصر » في العام بعد الأعوام . وأقرب عهدي به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عني أخباره ، حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل ...

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهوبا . والرسالة في يمني ، قد هاجت في نفسي عاطفة الذكرى لأيام رقاق ، قضيتها ناعم البال خلي الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عيني على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان » . وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدي ، حتى أخذت عيني عنوانات على جبين الصحف ، تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة في الأموال والأرواح ، فقذفت بهذه الصحف مغيظا وهممت :

شد ما يغلون فى رواية الأخبار . . .

وصحت مناديا الخادم ، فقلت له على الفور :

احزم حقائبى . . . سنرحل مبكرين إلى « القاهرة » . . .

فقال لى مأخوذا :

والغارات يا سيدى ؟ . . .

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار؟ . . . الأعمـــار بيد الله ! . . .

وفى أصيل غدى كنت أغادر دارى فى « القاهرة » آخذا طريقى إلى « حى الحسين » ، ووقفت عن كثب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت ، الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفى : « مَغْنَى الرشيد » ، فأخذت بالمطرقة أدق الباب ، كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى ! . . . وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم « الكابتن » الخاص فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفا ، ثم شد حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا : فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطبا مظللا ، يظلله عريش كرم عتيق ، وجزت بتلك الفسقية الساذجة ، وماؤها يقرقر ؛ كأنه يحيي القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق ، تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ، ظهر شبح صديقي المستشرق ، وقد بسط لى ذراعيه ، فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقي بيدى فسايرته إلى البهو ، وهو يخب فى عباءته الحريرية المفهافة ، وقبائه الزاهى ، وذلك الخف الأحمر ، يخفق به على الأرض خفقات هينة ؛ كأنها همس أطياف ... واسترعى انتباهى فى نظراتى إلى الصديق هزاله وامتقاعه ، ومشيه متوكئا على عصا ، يظالع بعض الظلع . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقاربين . وصاح صديقي قائلا ، وقد ضرب كتفى بيده :

ما قولك فى أنى عثرت فى « مجريط » على مخطوط ديوان « ابن زريق » ، وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهليه ؟ . . .

فقلت دهشا :

ما أندرها تحفة ! . . . ألا تمتعنى بالنظر إليها ؟ . . .

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم :

تركتها فى دارى وراء البحار . . . ولا أدرى ما حظها من كوارث الغارات هنا لك ؟ . . .

فهززت رأسى أسفا ، ثم قلت له .

أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية فى « إسبانيا »

من عهود الحضارة الإسلامية فى « الأندلس » ؟ ...

وكنت أعلم أن لصديق باعا واسعا ، فى الرسم والتصوير . . .

فقال لى ، وهو على حاله منسرح الخاطر :

لدى طرائف ولطائف ، استطعت أن أنقلها رسما وتصويرا ، وهى الآن رهينة أقدار الغارات فى خزانة كتبي هنا لك . . .

ثم صمت لحظة ، وقال :

حينما جندت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى «القاهرة» ، لم أستطع أن أحمل معى شيئا من كتب أو مذكرات أو صور . . . جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار ! . . .

وسمعته يصيح بخادمه « مسرور » :

علينا بالشاى ! . . .

فقلت له :

إنى لأعجب لك ، كيف تتكلم عن الحرب والضرب ، وما أراك إلا كسابق عهدك فى « مغنى الرشيد » ، تتقلب فى أحلام الشرق الهائمة ، وها هو ذا « مسرور » مازال قائما بخدمتك ! . . .

فابتسم ابتسامة سانحة ، وقال :

أنا فى إجازة مرضية ، أقضى فترة النقه ، بعد علاجى من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع فى ساقه ، وواصل حديثه يقـــول :

لقد أرادونى على أن أنزل « الجيزة » أو « حلوان » ، فقلت لهم عونى أستجم فى حى « الحسين » ، أنشق عبير الراحة فى « مغنى الرشيد » ، وأملأ سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان ، يهز نفسى هزا ، ويرنح أعطافى طربا …

ثم ابتسم ابتسامة وضيئه رحيبة وقال :

ما أجمل أن يقضى الإنسان عمره فى ذلك الجو الساحر ، جو « ألف ليلة » ! … إنى لأشعر بأنى أعيش حقا !

وعلا بصدره يملأ رئتيه بالهواء ، فتناولت سبحة ، كانت منا عن كثب ، وطفقت أعبث بحباتها ، وأنا أحدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات :

ولكنى أرى أن شيئا ينقصك …

— أى شىء ؟ …

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالسبحة أعبث :

ينقصك « شهر زاد » ! …

ورفعت عينى إليه ، فألفيته يصعد نظره فى عرض الحجرة صامتا ، وهو يتكلف ابتسامة شاحبة ، ثم جمجم :

« شهر زاد » ؟… ويحك من مهذار ! … أنى لى بـ « شهرزاد » هـــذه ؟ …

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول ، وقد تزايلت ابتسامته ، فى صوت متخافت ، كأنه آت من مكان سحيق :

شهر زاد ؟ . . . إنها بعيدة . . بعيدة كل البعد ! . . .

وأردت أن أتبين مايعنيه ، وما يحاول أن يخيفه ، فابتدرنا « مسرور » قادما بصينية الشاى ، يتخطر بجسمه المتكتل الضخم ، وعمامته الطويلة ، التى تكاد تلامس السقف . فوضع الشاى بين أيدينا ، وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقال . . :

وصب صديقى « المستشرق » الشاى فى الأقداح ، وأخذنا نحتسى على مهل ، ونحن فى صمت كأننا فى شغل بالشراب ! . . .

وجعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ماحوت ، فوقعت عينى على صورة ، لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوى . . . ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عيناه دعجاوان ، ينبسط تحتهما خمار أسود ، رقيق النسيج يكاد يشف عن ملامح وسمات فنهضت إلى الرسم أتوسمه مليا ، وقد خلبتنى هاتان العينان بحورهما الساحر ، وأهدابهما الوطاف . . . ورجعت الى مجلسى فاحتسيت جرعة من قدح الشاى ، وأنا أقول :

صورة رائعة ... لقد تجلت براعتك فى التصوير ياصديقى ! . . .

— أترى ذلك ؟ . . .

ـ أمن وحى الخيال هى ، أم من عالم الواقع ؟ . . .

فصمت متشاغلا يصب الشاى ، ثم قال مبهما :

من وحى الخيال . . .

ــ ألم تستلهم السمات من نموذج حى ؟ . . .

ــ قلت لك : من وحى الخيال ! . . .

وشرد بذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على قدحى أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت ، فقلت أصل ما انقطع من الكلام :

ظننت أن « شهرزاد » تعوزك فى « مغنى الرشيد » ، فإذا هى تحتل منه أعز مكان ! . . .

فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة فى يده :

لاوقت عندى لشهر زادك ياصديق المهذار ! . . .

كيف تنفق يومك ؟ . . .

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوى شعره الأملس ، ويقول :

إنى أستجم ، لا أبرح الدار الا الندرة .

ــ ألاتمل هذا النمط من الحياة ؟ . . .

ــ اذا شعرت بحاجة الى التسلية ، فعندى « مسرور » يفكهنى

بنوادره اللطاف ... وقد أخرج ليلا فى ضوء القمر ، أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار ، مقبلا على المطالعة ..

— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر « العباس بن الأحنف » ... إنه زادى كله فى هذه الأيام ...

— ما لك ولهذا الشاعر ؟ ... إنه ينفح وجدا وصبابة ! ...

فسرّح صديق بصره لحظه أمامه ، وقال :

إنى لأقرؤه لسهولته وعذوبه شاعريته ، لا لوجده وصبابته ... فمالى بالحب شأن ! ...

— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟ ...

فسنحت على ثغره ابتسامة ، وهمهم :

تقصد الشيخ « جاد الرب » أستاذى ! ... إنه بخير ...

— عجيبٌ أن أسألك ـ انت ضيف مصر عن رجل ، تجمع بينى وبينه مدينة واحدة ... أتصدق أنى لم أره منذ زرته معك آخر مرة ، كنت أنت فيها بمصر ؟ ... أعلى حاله هو لم يجدّ فى شأنه جديد ؟ ...

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلا فى عمله ، مطيلا لوقته ، ثم قال ، منحرف البصر عنى :

إنه كما تعهد ، لم يحدث له شيء ذو بال ، إلا ما كان من أمر تافه ! .
ـ ماذا ؟ ...
ـ زواجه ! ...
ـ عجباً . أيتزوج وهو شيخ فان ، نصف بصير ، نصف سميع ، نصف حي ؟ ...
ـ هذا ما وقع ...
ـ من تكون تلك التي رماها به القدر ؟ ...
ـ « نور العين » ... ربيبته ...
ـ الطفلة الغريرة ، التي كنا نضيق ذرعاً بمعابثتها ؟ ...
ـ أحسبتها تظل طفلة أبد الدهر ؟ ... لقد غدت فتاة يافعة .. إنها تستقبل عامها السابع عشر ! ...
ـ ألم يذرف الشيخ على السبعين ؟ ...
ـ لا بأس ... لقد كفلها طفلة ، وألف أن تتعهده بالخدمة ، ولم يكن يقيم في البيت سواهما ؛ فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بداً من أن يبني بها ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ، ويبرىء عرضه ...

واسترخى صديقي في مجلسه ، وأشعل غليونه ، وراح ينفث الدخان ويبدأ مسبل الجفنين ! ...

وعادت الذكريات تطوف برأسي ، ولاحت لي مشاهد من زيارتي قديماً لبيت الشيخ ، في صحبة الصديق المستشرق ؛ إذ كان يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص . . .

كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد ، الذي لا يتزايل عنه ، مهما جد من أحداث ، ومهما تعاقب من أجواء . . . ولا نكاد نطمئن في مجلسنا إليه ، حتى يصفق بيدين هزيلتين ، صائحاً بصوته المختنق :

القهوة يا « نور » ! . . .

وما هي إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية ، عليها إبريق تحف به أقداح بلدية ، وموقد يتوهج فيه الجمر ، وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كثب من الشيخ ، وتبدأ في صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعد مرة !... وهي صبية سمراء ، فوارة العينين مراحاً وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس ، بين قارىء ومستمع ، فإذا آنست من أحدنا غرة رمته بحبات اللب أو الفول ، وهي تخفي بين طيات خمارها الأسود ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح ! ...

وبينا أنا في فيض من هذه الذكريات ، إذ تقابلت نظراتي

ونظرات صديق المستشرق ، وهو يتابع تدخينه ، فسمعته يقول همساً كمن يحلم :

ما كان أكثر معاكستها لنا ! . . .

وأمسكت عن الكلام فترة أحدق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء صمتنا فى رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب .

ثم قلت :

والآن كيف هى ؟ . . .

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف ؟

وشغل صديق بوضع الطباق فى غليونه وإشعاله . وفى هذه اللحظة قدم « مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية شاى ، وهو يقول لسيده :

أذكِّرك بالموعد ! . . . لقد أزف ! . . .

فقلت لصديق على الفور :

أعلى موعد أنت ؟ . . .

— لاعليك ... إنْ هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا « المعجم الأحمر » لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .

فنهضت قائلا له :

بل تذهب لطيَّتك ، فإذا أذنت رافقتك على مألوف

العادة ... إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فإني لم ألقه منذ زمن بعيد . . .

فقال وقد لم شمله ناهضا :

يسعدني أن تكون معي ! . . .

وتهيأنا لمبارحة القاعة ، وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقي يسترق النظر إلى الصورة المعلقة . . . ومضينا إلى الباب يخب صديقي في قبائه ، ويكور على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة ... وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذي كان طابع الحياة الليلية في ذلك العهد — ونحن صامتان نستبين الطريق في محاذرة واحتراس . . . وبعد لأي بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ صديقي يقرع الباب هنيهة ، فانفرج مصراعه ، كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز ، تطارد ظلامه فلول من الضوء ، يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعاني وحشة المكان ، إذ فاجأتنا سعلة هزيلة متصلة الحلقات ، صاحبت خطانا تؤنسنا حتى باب الحجرة ، وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح ، ونهب منه رائحة التبغ . . . وصفق صديقي المستشرق تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتا متداعي النبرات يقول :

أهلا وسهلا . . .

فدخلنا القاعة ، فإذا هي ، في غبرتها ، وضيقها ، وحلوكتها ... كومات من الكتب ، تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجها معروقا ضئيلا ، أكثره لحية شعثاء . . . ودنوت من الشيخ أذكره بنفسي ، فتناول يدي ، وأبقاها بين يديه ، وهو يحملق في بعين كلبلة محمرة تجردت من الأهداب ؛ وقال في صوت لم يصف بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة :

أهلا بصديقنا الهارب . . . أكذلك تنسانا دهرا ؟

فقلت وأنا أشد على يده :

حقا غبت عنك طويلا ، ولكن عذري في ذلك ما أحاط بي من مشاغل ومهام . . .

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة « أبي العلاء » ؟...

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم ، في وقت روعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟ . . .

فهمهم صديقي المستشرق ، وقد اقتعد حشيته القديمة في مكانه المألوف :

إن « أبا العلاء » ينتظر زوال الحرب ، ليخرج من مخبئه وينفض التراب عن لحيته ! . . .

فقال الشيخ متضاحكا :

أخشى أن يستبد النوم بـ « أبي العلاء » في محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد . . . طالما رغبت إلى صديقنا ، أن يذكي همته لإنجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتمادى في تكاسله ...

فقلت وقد اقتعدت حشيتي المعهودة ، بجوار كومة الكتب :

سأستمع لنصحك . . . ادع الله لي أن أوفق . . .

وصفق الشيخ تصفيقته المتراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب :

القهوة يا « نور » . . .

وجذب من جانب حشيته كتابا أبلاه « الطي والنشر » ، ثم قال لصديق المستشرق :

لنبدأ من حيث وقفنا أمس . . .

وانطلق يتحدث عن شاعرية « العباس بن الأحنف » وغزله ، مستشهدا بمقطعات رقاق يحفظها له . فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ودقة بحثه . وبينا نحن في نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتني على الفور عينان دعجاوان ، تحتهما لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمني ، وألفيتني أختلس النظر إلى المستشرق ، فوجدته مطأطيء الرأس ، يعبث بأطراف عباءته . . .

وقصدت « نور العين » مجلسها ؛ عن كثب من الشيخ ؛ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بإبريقها وأقداحها وبمجرتها يتطاير منها عبق البخور ، ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا : قدحا بعد قدح ؛ والشيخ ماض في حديث « العباس بن الأحنف » ينشد من رقائق غزلياته ، وهو يتابع أنفاسه في جهد ، يستدر الإشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالي الإنصات له ؛ إذ كنت في الفينة بعد الفينة ، أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونهما الخمار المفهاف ، فيخيل إلى أنهما عينان معلقتان في الفضاء ، لا يتصل بهما وجه ولا جسد ... نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ، ويفيضان بالأحلام العذاب ... ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديق المستشرق ، فما رأيته إلا متجمعا مسترخيا في جلسته ، يعتمد ذقنه بيده في إطراق ، وكأنه في غيبوبة روحية ، يهيم في آفاق مترامية ...

وترادفت اللحظات ، ونحن في هذه الدنيا الغريبة : صديق مسترسل في حلمه السحري ، يكاد لا يفيق ، وأنا في جلستي أدير النظر حولي في هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان في الفضاء ، كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا في جنح الليل بسكنه الحياة ، وهذا الصوت الذي يردده الشيخ يبدو كأنه

مبهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغتة أفقت من غفوتى على ضربة،أوقعها الشيخ على كتاب أمامه وهو يقول :

أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ ، أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيا صفيا للحب ؟ ما أروع قوله :

سلبتنى من السرور ثيابا   وكستنى من الهموم ثيابا

كلما أغلقت من الوصل بابا   فتحت لى إلى المنية بابا

عذبينى بشىء سوى الصد   فما ذقت كالصدود عذابا

فقلت :

لم يكن « العباس » إلا قلبا يخفق صبابة ، وروحا تشف نقاء .

فسمعت صديق المستشرق يهمهم ، وهو على حاله مطرق :

ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ فى سبيل حبه وقلبه ! . . .

واستأنف الشيخ يروى من شعر « العباس » فى نغمة متساوقة، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين فى الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ؛ وإذا المستشرق يعلو بهامته يشيّع الشبح الهارب بنظرات خاطفة . . .

وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ،

ولم نسمع من صوت ؛ كأنما هى طيف هبط علينا حينا ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور ! . . .

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقى يستأذن شيخه ، ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ؛ وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة ، من الدروب الملتوية ، والحارات المستغلقة السابحة فى عباب الظلمات . وكنا نلتمس الطريق ، كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق فى أخيلته ، مشغول بعالمه... وتمادينا فى الصمت ، وكان الهواء حبيسا كثيفا ، زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق فى الطريق ، وكأنه شعرَ بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدى ويلاطفها ؛ كأنه يستعيض بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة ؛ لم يتوضح من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها المشوقة إلى العلاء ؛ كأنها تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء ! . . . ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة ، وقد شغفت قلبه ، وإذا صوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو وعقلى كلما لا ح بريق تلفتت للقا كا

كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حما كا

وجعل الصوت يرجع فى نشيده ، ونحن إليه بقلبينا نهفو ، مستمتعين بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وبدا يطويه السكون والظلام ...

وخيل إلى أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألفيت نفسى وصديق نتحرك عائدين إلى المتاهة ، نضرب فى الحارات والدروب . . . وعاد الصمت يلقى علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباسا وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديق تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين .

ووصلنا إلى « مَغْنَى » الرشيد ، فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشيّة نواجه معاصورة العينين ، ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين ، وهمست قائلا :

فى هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور ! . . .

فقال لى صديق المستشرق ، فى صوت هادىء النبرات :

إنهما عينان لِطَيْف بعيد ... طيف بعيد غاية البعد ... ليس إلى الوصول إليه من سبيل ! . . .

وهنا أسبل جفنيه ، وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى . . .

وكنت أزور الصديق المستشرق ، فى الفينة بعد الفينة ، ماواتتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى مايطلب من تواصل الزيارات ؛ إذكان يحس أنه فى حاجة إلى من يأتنس بوجـــوده فى دنياه التى اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من سر دفين . . . ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى صمته المضطرب ، لايزيد إذا اشتدت به الحال ، على أن يضغط يدى ويلاطفها فى حنو ورفق . . .

لم يجدّ فى برنامج حياتنا جديد . جلساتنا الهادئة فى « مغنى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف ، وزوراتنا لذلك « المعجم الأحمر » نستمع إلى ثرثرته الفياضة فى شعر « العباس بن الأحنف » حيث تقبل علينا « نور العين » بخفيف ثوبها ، حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح والمجمرة الطيبة الشذا . . .

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة . وبينما نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق

البعيد ، إذا نجم يهوى محترقا ، وقد سطع بريقه سطوعا يخطف البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعته غياهب الظلمات . . . فقال صديقى وهو فى وقفته متطلع النظرات :

ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقى بنفسه فى أحضان الليل البهيم ! . . . إنى لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره ضمة الأم الرءوم ! . . . إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون فى مثل هـــذا النجم إن انفجارا حدث فيه ، أو أن اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقا وأدركه الفناء . . . ولكن لم حـــدث الانفجار ؟ . . . لم وقع الاختلال ؟ . . . لا يدرى أحد . . . وما كان النجم ليدرى ذلك المصير . . . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه ، أعقبه اشتعال ففناء . . . ليس فى الوجود شىء بقادر على أن يحمى ذلك النجم عما أصابه . . . ثمة يد خفية تدبر الكائنات ، لا تسمو إلى إدراكها العقول والأفهام ! . . . ألسنا مسيرين فى هذا الكون لا مخيرين ؟ . . . علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد ! . . .

ثم أخذ بيدى ، فسرنا الهوينى وتابع صديقى قوله :

أليست أعظم مرحلة فى حياة هذا النجم وأعظمها هى تلك اللحظات التى احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن فى قلبه من

حرارة وضياء ؟ . . . إن ملايين السنين التي قضاها من حياته في مسبح الفلك لتعد تافهة زريّة إذا قيست بهذه اللحظات التي عاشها، وهو يهوى محترقا في الفضاء ! . . . ما أجلها متعة وما أروعها حياة ! . . . شبيه بهذا النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده خابي الوجدان راكده ، وما هو إلا أن تنبعث في أعماقه شرارة الانفجار ، فيلتهب باهر الضوء ، خاطف البريق ! . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ، ويكمن فيها سر الحياة الحقة ، لا يعدلها شيء في الوجود ! . . »

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ؛ كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام . . . ولاحظت على صديقي أنه لا يزور الشيخ إلا لماما ، وأن شحوبه يتزايد، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذي يغلي عليه ضلوعه يحتدم مضطرما فلا يجد له من متنفس . . . وكان صديقي إذا اشتدت به كربته ، خرج إلى تطواف بعيد الشقة ، تكل منه الأقدام ، حتى لقد نتغلغل في رحاب الصحراء ، ونكاد نتيه في شعابها الموحشة. وقد يتفق لنا أن نجوز بدار « المعجم الأحمر » فأرى الصديق يخفف من خطاه ، ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينه قليلا

إلى حيث نوافذ المنزل ينضح منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه ، وقد بلغ به الجهد كل مبلغ ، فيلقى بجسده المتخاذل على الفراش ! . . .

ولما هالنى اشتداد الأمر به اقترحت عليه أن يستبدل بدار مسكنا فى حى آخر ، ينقله إلى بيئة جديدة ؛ وأسلوب من العيش جديد.

فقال لى :

أتريد أن تسلبنى ما أنعم به مما بقى لى من أيام إجازتى فى هذا الفردوس ؟

فصحت به :

أهذا تسميه فردوسا ؟ . . . إنه الجحيم المستعرة . . . إنك تذوب وتحترق على عجل ! . . .

فابتسم لى ، وهو يشد على يدى ، ثم قال :

لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار ! . . .

وأطرق برأسه وقتا ؛ ثم قال :

إنى أذوب حقا وأحترق . . . ولكن الإنسان فى بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص . . .

وقصدت دار صديقى يوما ؛ إذ كنت معه على موعد لقاء

لزيارة شيخه « المعجم الأحمر » ، فقال لى :

أنا اليوم مجهود ، فلتبق معى فى الدار لانبرحها . . .

واتخذ كلانا مقعده على الحشايا . ونحن نتناول الشاى وندخن ، وكان أول ما استرعى نظرى أنى وجدت مكان الصورة خاليا منها ، فالتفت إلى الصديق على الفور أقول :

أين « شهر زادك » ؟

فابتسم ابتسامة أسى كظيم وغمغم :

لقد توارت ! . . . استردها عالم الأرواح . . . ألم أقل لك من قبل : إنها طيف من الأطياف ؟ . . .

فلت عليه قائلا :

زدنى إيضاحا . . . ما هذه الأحاجى ؟ . . .

فرنا إلىّ بعينه الصافية الزرقة ، وظل وقتا لا يتكلم ، ثم قال وقد ازور ببصره عنى :

هل لك فى أن تقرأ فصلا من « رسائل إخوان الصفا » ؟ . . . لقد انتهت إلى مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل . . .

فصعدت فيه بصرى فترة ، وقلت :

وأين « ابن الأحنف » ؟ . . .

فرمى بنظره فى عرض الحجرة ، وقال :

طويته . . . فرغت منه . . .

— وهل يُطوى حديث الحب والغزل ؟ . . .

فأجابني وهو على حاله مشرد النظرات :

متى كان في مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل . تحسن صنعا ! . . .

وألفيته يستخرج مخطوطة الرسائل، وأقبل يقرأ جَهْوَرِىّ الصوت ، باذلا أكبر الجهد في التفهم والتمعن والاستخلاص ، وألفيتني أشاركه الدرس وأساجله الرأى . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقي يزداد احتقانا وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال . وإذا رأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه مطبق الجفنين ! . . .

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقى تنتقل به الحال من سيء إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها في عشية أو غداة ، وعكف على «رسائل إخوان الصفا» يتعمق فيها أدق تعمق ، ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد . . .

ولاحظت أنه كلما طاف بذهني شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين ، والخمار المفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقى الحديث فيها ؛ أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدى — يأخذ على السبيل

ويشغلني بأحاديث مختلفات تطوح بنا بعيدا عن ذلك الحديث .

وطالت فترات صمته وإطراقه ، وتبين في جسمه الضنى والنحول ، حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح . فأدركتني رحمة لصديقي ؛ وإشفاق عليه ، مما حل به ، فأمسكت بيديه ، وقلت له في عزم وتأكيد :

لا أرضى لك هـــذه الحياة . . لقد صح عزمي على خطة في شأنك ... سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أم أبيت ... نستطيع أن نسافر إلى الضيعة ، أو نقيم أياما في إحدى الضواحي الطيبة الهواء . . .

فلم يعقب على كلامي بشيء ، ولم يزد على أن ربت يدي ملاطفا وهو يبعث إلي بابتسامة مستخلفة زادتني حيرة إلى حيرة . . .

وفي اليوم الموعود وفدت على « مَغْنَى الرشيد » وقد انتويت أن أنفذ عزمي على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقاربه الدهليز حتى أقبل علي «مسرور» يزحم الممر بجسمه المتكتل وعمامته الطويلة التي تناطح السقف ، وقال لي مبادرا :

لك عندي رسالة من سيدي . . .

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلي ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقى الكريم :

كان من مقترحك علىّ أن أستبدك بمثابتى مثابة أخرى ، فلم ينفتح لى من الرأى إلا أن أختار حومة القتال ، فربما أقدرنى الله على أن أقوم هنا لك بعمل ذى جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك . هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوما ؟

محبك المخلص : المستعين بالله »

وبارحت الدار ، والرسالة فى يدى ، وأنا فى موجة من الزهول والأسى ، دون أن أبادل « مسرورا » أى لفظ ...

ومضى شهر لم أعلم فيه من نبإ صديقى شيئاً ، كثر أو قل ...

وبينا أنا يوما فى مكتبى ، منصرف إلى بعض عملى ، إذ دق « التليفون » ، فإذا المتكلم على مابدا لى جندى أجنبى ، يبلغنى رسالة مقتضبة ، يدعونى فيها إلى زيارة مستشفى عسكرىّ بالجيزة . . . وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبى خفقة وله وجزع . ونهضت من فورى عجلا إلى ذلك المستشفى . فلما بلغته ، واتخذت إجراءات الإذن بالدخول ، ذهب بى الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث ، بيضاء الطلاء ، تطل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقا لا يستقر بى المقام ، أذرع الحجرة تارة ، وأقف أمام النافذة تارة أخرى . . . وبعد وقت دخل على عرض طلق

المحيا ، أبيض الحلة ، يلتمع نظافة وأناقة ، وقال :

صديقك ينتظرك . . . أرجو ألا تطيل زيارتك . . . لقد أجريت له حديثا عملية جراحية ذات خطر . . .

وخطونا إلى حجرة المريض فإذا هى حجرة مسدلة الأستار، يشيع فيها الدفء ،وفى ركن منها سرير ، تبينت بين أغطيته ومفارشه وجها بالغ الشحوب، شديد الامتقاع ، وجها لم يكن بالغريب علىّ . . . وتقدمت مضطرب الخطو ، فقابلتنى العينان الزرقاوان ، وقد بدتا صفاء ، حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون . . . وتخايلت على ثغر الصديق ابتسامة رقيقة ، واضطربت شفتاه بصوت مهزول راعش :

لقد سمح الدهر بأن نلتقى . . .

ولا أدرى على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولكنى أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ بيدى يشدّ عليها،فشعرت بكفه مقرورة غير متماسكة .

ووقفت صامتا أحاول أن أكسب وجهى مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقى ماراعنى من حاله . . .

وبعد قليل ترك يدى ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته، فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها

لحظات . . . ورأيته يسبل جفنيه ، وتتراخى يده ، فانحدرت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه . . . فاختلست النظر إليها ، فإذاهى عينان دعجاوان ، ينبسط تحتهما خمار أسود هفهاف... وخيّل إلىّ أن هاتين العينين الحالمتين ، وهما ترنوان إلىّ ، كانتا نديتين ، تتحير فيهما قطرات من دموع ! . . .

تأمين على الحياة

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت ، بثرثرتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التي يسودهـــا العناد والمكابرة مفضية بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نفايات الخمور ! . . .

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين ، شاب يدعى «شافعي» أو «الأستاذ شافعي» كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب . . .

ولم لا يكون أستاذا ، وهو الذي لم يكد يخفق في حيـــاته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى ازدج كاتبا ، أوشبه كاتب في بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصداؤها في جنبات المحاكم . . . ومرت أمام عينيه أضاميم القضايا ، فعلقت بأنظارة أمهـــات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتاب المحاماة ، تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإنذار والكيد للخصوم . . .

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر ؛ فرباط رقبته المهلهل الذى قرحته الأدران يعقـــده عقدة ضخمه كأنها سلحفاة آخذة بتلابيبه ، وشعر رأسه العامر بالمقاذر يرجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد طل من جيب سترته الاعلى قلم حبر ، أو بالأحرى أنقاض تاعسة من قلم ثمين ، لو أوتيت معجزة النطق لصاحت : ارحموا عزيز قوم ذل ! . . .

فإن هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع ... ما أعياه عن أن يخط حرفا بله كلمة . . . ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى يشيء على القرطاس ، وإنما كان يتخذه شعارا أو شارة تعلن أنه من حملة الأقلام ! . . .

كان الشاب يختلف إلى ذلك الخان ، دائبا لا يتخلف ، ويمضى أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا . . . وكان صاحب الخان يلقاه بوجه عبوس ، ونظرة نكراء ، يتوضح فيها الإزراء ... أليس فى ذلك كله آية بيشنه على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المكانة فى دنيا التصعلك والفراغ ؟ . . .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد فى ذلك الخان قد ملتهم كراسيهم ، وضجرت بتشبثهم تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ؛ إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر ، وتلك

المحاورات التى لايخبو لها أوار ، ومتى كلت حناجرهم أشرعوا أبصارهم إلى الطريق يجدون فيه مجالا للمتعة والسلوى ، فقد كان الخان قائما فى ملتقى شارعين من أكثر شوارع «القاهرة» ازدحاما وحركة . . . المركبات على اختلاف أنواعها فى جيئة وذهوب ؛ والسابلة على تباين طبقاتهم وأزيائهم ، لايفتر تتابعهم من رجاله ونســـاء . . .

فى أصيل يوم كان « الأستاذ شافعى » يتحدث إلى حشد من الرفاق ؛ وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ، وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوهم غيره بأنه من أولئك النفر المسايرين للتطور الاجتماعى المشاركين فى جديد أنظمته وأوضاعه . . .

ومن حق « الأستاذ شافعى » أن نسجل له ما أوتى من بصر نفّاذ مؤثر ، يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل طنانة رنانة ؛ والكلمات فخمة ضخمة ، يلقيها مصطنعا لهجة المحامين، متخذا طرائقهم فى الإشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله:

الجهل بالقانون لا يعفى من المسئولية . . .

المتهم برىء حتى تثبت إدانته . . .

أيأخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان « الأستاذ شافعي » متدفقا في حديثه ، والجمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تتعالى في ملتقى الشارعين ، فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألفى الزحمة تتزايد ، والطريق تتعطل حركته . وما هي إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبي لبان كان يسرع بدراجته الخربة ، عليها قوارير اللبن يوزعهـــا على طلابها في البيوت ، وفي ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعا من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن . فوقف الصبي يندب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المتجمعين حوله خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح ، متهما الصبي بجهله نظام المرور ، وحداثة عهده بسياقة الدراجات . . .

وظل « الأستاذ شافعي » يدافع الناس بمنكبيه ، حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصا ، وهو يرقب مجرى الحوار . . .

وأوشك الجمع أن ينحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفي تبعته . . . وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد في سيارة ضخمة ، يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟

وكيف لا يكذبون ذلك الصبي الغرير القأفاء الذى لا يحسن إلا الشكوى والتحسر والانخذال، معبرا بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف أقسامه حتى لتنأى به عن طلعة الإنسان، وتجعله أدنى إلى مرتبة العجماوات، فلا يثير بشكله وبحديثه إلا السخر والاستهزاء؟

وما هى إلا أن تقدم «الأستاذ شافعى» يجابه السائق بقوله:

يجب أن نحدد المسئولية تحديدا واضحاً ياحضرة ... أنت فى سيارة، وهذا الصبي فى دراجة، والفرق جلىّ بينهما، من حيث القوة على الضبط والربط، وإنه سائق لك، وأنت من ورائه تراه ولا يراك!...

ومسح صبي اللبّان لعابه المتسايل على زوايا فمه، ودعك أنفه المتفش، وحلق فى ذلك الشاب مشدود النظرات...

وصمت الجمع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطيق، بصوته الجهير...

ودبت الحماسة بين جنبي «الأستاذ شافعى» فعلا بصدره، وأصلح رباط رقبته المتفخ، ثم انتزع قلمه العتيد من جيب سترته الأعلى، واندفع يشهره فى وجه السائق، وهو يقول:

القانون صريح فى تحديد المسئوليات... إن...

فقاطعه السائق متحديا يقول:

لا تدخل فيما لا يعنيك ياأفندى!...

وأحس « الأستاذ شافعى » أن السائق يتحفز لشر ، فخشى المغبة ، وألفى قدميه تتراجعان . . . ولكنه لمح شبح الشرطى يتخطر فى طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحيّة ، واستأنف قوله متصايحا منتفخ الأوداج :

كيف لا يعنينى ؟ . . . أتعرف من أنا ؟ . . .

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

لم أتشرف بعد ياجناب « الحكمدار » ! . . .

فعقب عليه « الأستاذ شافعى » وقد ملك أعصابه ، قائلا فى تؤدة ، وهو يحكم مخارج الحروف :

أنا السكرتير العام فى نقابة المحامين ، وعضو مجلس الإدارة المنتدب . . .

وتراءى شبح الشرطى ، وقد تصيدت أذنه ما بعض ما تفوه به الشاب الثائر ، فاستشعر له شيئا من التقدير ، ورآه يتجه إليه ويسترسل أمامه فى نبرات خطابية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غاليا فى التفصيلات ، متحذلقا فى التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

القانون صريح . . . من أضر بآخر لزمه التعويض ! . . .

وكان صبى اللبان قد انتبذ بدراجته مكانا غير بعيد ، وعينه تلتهب « الأستاذ شافعى » ، وفمه ينفرج عن بسمة كريهة بلهاء ! . . .

واتخذ الشرطى سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من التزمت والأنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير فنى ، يستشف بنظره حقائق لا يعلمها إلا الأقلون . . .

وما إن أتم بحثه وفحصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر فى كُسارها ؛ كأنه يستجلى غوامض مصر عها ، ثم داعب حطامها بحذائه الثقيل ، وما لبث أن ركله ركلة ، ألقت به عند حافة الطوار بجهزا عليه . . .

ورجع إلى السائق يقول عابس القسمات :

خير لك أن تؤدى للصبى تعويضا . . .

وسرعان ما سرت فى الجمع همهمة استحسان لهذا الرأى ، وانقلب الجمهور فى لحظة ظهيرا للصبى ، يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض . . .

وألقى السائق نظرة على الشرطى ، فلمح شاربه يهتز انفعالا واستنجازا ... وألفى شرادم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله ، وتألبت عليه ، وإذا «الأستاذ شافعى» يتصايح ، معددا ما لحق الصبى من أضرار ، وما على السائق من تبعات ... فلم يجد السائق مفيضا من الاحتكام إلى الشرطى فى تقدير التعويض ، راضيا بما يكون من حكمه فى هذا الصدد . . .

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وفتل شاربه ثم انطلق بقوله :

أعطه عشرين قرشا ... لقد أصاب الدراجة تلف شديد ...

دفع السائق هذا المقدار صاغرا ، وتناول الصبي النقود فاغرا فاه من دهشة واغتباط، وصاح الشرطي بالجمع أن تفرقوا .. وسرعان ما انقشع الزحام ! . . .

انطلق صبي اللبان يجرّ دراجته في تسكع ، وهو ينظر إلى يده مطبقة على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمن من هذه القبضة القوية ... أيأتمن على النقود جيبه المتهتك ، في ذلك الثوب البالي المهلهل ، الذي لا يؤمن على شيء ؟ . . .

سار وقتا لا يخطر بباله شيء ، ولا يفكر إلا في مصرف هذا المبلغ الضخم ... إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه الساعة البيضاء ! ...

وفيما هو على حاله ، يقدر ويدبر ، أحس شخصا يتهادى على قرب منه وإذا هو «الأستاذ شافعي» ينظر إليه في تلطف وهو يقول :

ما رأيك ؟ . . أمسرور أنت ؟ ...

فانبسطت أسارير الصبي . وأطلق ضحكة شوهاء : وقال :

طال عمرك . وبقي أولادك ! . . .

— يبدو لي أنك ولد رقيق الحال . . . ما اسمك ؟ . . .

— « الفولي . . . .

ـــ ماذا تعمل ؟

ـــ صبي لبان ! . . .

ـــ عند من ؟ . . .

ـــ عند « المعلم فتح الله » ... ألا تعرفه ؟ . . . الرجل ذو الشارب الغليظ ، والكرش العظيمة . . .

وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكته « الأستاذ شافعى » بإشارة منه ، وقال له فى جد :

ماذا أنت صانع بالدراجة العاطبة ؟ ... وماذا أنت قائل للمعلم، فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟ . . .

فنظر إليه « الفولى » ذاهلا يقول :

لم أفكر فى هذا قط . . .

ـــ إنه سيطالبك بالعشرين قرشا ؛ لأنها تعويض عن قارورة اللبن ، وعطب الدراجة . . .

فبدا على وجه الصبي حيرة وتخوف ، وجعل يردد ، وكفه تزداد انقباضا على ما فيها :

كيف يأخذ النقود منى ؟ . . .

ـــ هى من حقه . . .

وحنا « الفولى » رأسه فى قنوط واغتمام ؛ وأخذ يردد :

وماذا أصنع إذن ؟

— نبحث المسألة ؛ لعلنا نجد لك مخرجا معقولا . أنت بائس محتاج ، وأنا مستعد ان أعينك على أمرك . . .

فقال الصبي وقد شرق بدمعه ، ونظر إلى الشاب نظرة توسل وركون :

طال عمرك وبقى أولادك .. أنا محتاج حقا ... أنا يتيم ليس لى من أعوّل عليه ... وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ، وياليته راض عنى ، فلشدّ ما يضربنى ويخزنى ويهددنى بالطرد ! ...

واندفع يشكو ويتضرع ، راغبا فى طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود . . . وراح « الأستاذ شافعى » يدور حول الدراجـــة متفحصا إياهـا بعين الخبرة ، أو بالحرى يوهم « الفولى » أنه ذلك الفاحص الخبير . . .

ثم همهم :

ربما لاحظ المعلم عطب الدراجة ، فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ،وبذلك تنجو من حسابه وسؤاله...أقوىّ النظر هو؟ ...

— عينه كعين الصقر ...

— هنا نقطة ضعف فى المسألة . . . ولكـــن ثمـــة وسائل لإنقاذ الموقف . . .

— بربك ساعدني ! . . .

وتشبث به «الفولي» ، فراح «الأستاذ شافعي» يعتصر جبهته برهة ، ثم واجه الصبي مباغتا إياه بقوله :

— سألقنك بعض جمل قد تنفعك . . . قل إن ما حدث كان قضاء وقدرا ، ولا راد لقضاء الله . . قل إنك سليم النية لم تضمر أيّ سوء . . . قل إن السيارة حين اقتحمت الدراجة أقبلت أنت على الدراجة ، تحميها وتحمي ما عليها من قوارير ، حتى دمي جسمك وتمزق ثوبك ! . . .

ووقف الشاب يتوسم الصبي لحظات . ثم قال :

— يجب أن يدمى جسمك ، وأن يتمزق ثوبك . . .

— كيف ؟ . .

— أعاجز أنت عن أن تخدش جسمك ، وتشق ثوبك ، وتتمرغ في التراب ؟ . . .

— أليس من هذا بد ؟ . . .

— لابد من ذلك ، لابد . . . لا خلاص لك إلا بهذه الوسيلة . . . إن المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك . . .

فابتسم «الفولي» ابتسامته العريضة ، وقال :

— أمرك ! . . .

وانتحى « الأستاذ شافعي » و « الفولي » ناحية من الطريق مهملة ، وشرع الصبي يؤدي لنفسه مهمة الخدش والتمزيق والتمرغ، وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد ! .

فما إن رآه « الأستاذ شافعي » حتى ربّت كتفه ، وقال :

أحسنت ! . . .

ثم تابع قوله :

لا تنس أن تتدانى إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل القسمات ، تتلوى من الألم . . .

ثم استمر يشرح له الخطة ، ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح، وبما يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى « الفولي » ما سمع ، تهيأ للمضي في الطريق ، فنظر إليه « الأستاذ شافعي » مليا ، ثم تصنع ابتسامة وقال :

أراهن على أنك تريد مني أن أرافقك في مهمتك ، حتى أخلصك من سطوة معلمك ! . . .

فأجاب الفتى في سذاجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك . . إن هذا لجميل منك . . .

وهنا وقف « الأستاذ شافعي » وقفة حزم ، وقال :

ولكن مسألتك أضاعت من وقتي ساعتين فماذا تبغي مني

فوق هذا ؟ . . . لدىّ قضية مهمة لا تخلص من إنجازها ، وجلسة في النقابة علىّ أن أ . . .ها . . .

وأخذ «الفولى» يتضرع قائلا :

— حانقف من المعلم . . .

ولبث «الأستاذ شافعى» يمط شفتيه فى امتعاض ، مظهرا التردد والإحجام ، ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الحرة ، وداعب ذقنه لحظة ، وأخيرا قال :

لا بأس . . . دقائق أخرى من أجلك . . . أنت ولد تستحق المساعدة . . .

وابتهج «الفولى» بذلك الفوز ، فأقبل على يد الأستاذ شافعى ، يغمرها بقبلاته . . .

وأخذا يتوجهان وجهة حانوت اللبان ، فقال «الأستاذ شافعى» :

عليك أن تتقدمنى خطوات ، حتى لا يراك أحدمعى ؛ فيرتاب فى الأمر . . . إنى مراقبك من بعيد ، وسأتدخل فى الوقت المناسب ! . . .

وأخرج علبة لفائفه وفتحها ، ثم قذف بها فى عرض الشارع متسخطا يقول :

ليس فيها لفائف ! . . .

فقال «الفولى» على الأثر :

ـــ أذهب لأشترى علبة ؟ . . .

ـــ لا مانع . . .

وأخرج محفظته المنتفخة بالأوراق ؛ وألقى بصره عليها ، ثم زوى ما بين حاجبيه ، وقال :

لاداعى للفاتف الآن . .

ـــ ولم ؟ ...

ـــ ليس معى إلا ورق مالى كبير لايصرف هنا ...

قال ذلك ، وقد سلط عينيه على كف الفتى ، يريد أن ينفذ ببصره إلى « الريال » المختنق فى قبضتها . . . فقال « القولى » وقد أحس النقود تضطرب فى يده :

ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير . . . ألا نجرب ؟

فقال « الأستاذ شافعى » محتدا :

حسبى ما ضاع من وقتى . . . أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة النقابة ؟ . . .

ـــ لاأحب أن أراك متضايقا ، كما أنت الآن . . .

فصاح « به الأستاذ شافعى » صيحة عنيفة :

قلت لك إنى مرتبط بمواعيد . . .

فوقف «الفولى» منكمشا، ثم أخذ يهرش رأسه، وانسرح يفكر، وهو يردد بصره بين قبضة يده يختزن فيها كنزه وبين «الأستاذ شافعى» يقف وقفته العصبية ...

وأخيرا لم يجد بدا من أن يقول:

أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها مما عندى ... وحين تصرف الورقة ترد إلىّ الثمن ...

— ما هذا الكلام الفارغ ياولد؟ ...

وبعد تمنع ومناقشة، أقبل «الأستاذ شافعى» فد يده وانتزع النقود من يد الصبى، وهو يقول ...

وأفضل أن أشترى علبة اللفائف بنفسى ... اسبقنى وأنا وراءك! ...

وسار «الفولى» يجرّ دراجته المتداعية، وقوارير اللبن يرتطم بعضها ببعض، وكأنها تتساءل عن مصيرها، بعد أن تغير البرنامج المسوم لها كل يوم! ...

تبع «الأستاذ شافعى» خطوات الصبىّ، وكان كلما قطع من الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا ... وبين الفينة والفينة يلتفت إليه «الفولى»، ليشعره بأنه أمامه يهديه السبيل ...

وازدحمت السابلة أثناء السير، فلاحت الفرصة «للأستاذ شافعى»: كى ينجو بالغنيمة، ولكن عين «الفولى» لم تنم عنه، فأفسدت عليه تدبير الهرب، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغريز!...

على أنه اعتصم بالصبر، وحث خطاه، مزمعا فى دخيلة نفسه أن ينتهز أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء!...

ولكنه ما عتم أن ألفى نفسه قبالة حانوت اللبان، حيث تهيأ الفتى ليلج بابه، متخاضع الهامة، ذليل الخطا...

وكانت وجهة الحانوت بيضاء مغبرة قذرة، وعلى عتبة الباب يتسايل الماء فيملأ البقعة بالأوحال...

ومن خلال زجاج الوجهة يتراءى مصباح كهربى، يتدلى فى نحو مبتذل، ويتهافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص شأنه لحيوان أوضح مافيه ضرع كبير، لاتدرى أبقرة هو، أم لبؤة، أم هرة عجـــوز؟

وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم، يتعالى منها صوت متحشرج، تشيع فيه رنة السخط، ما أشبهه بخشخشة مذياع خرب!...

لمح «الأستاذ شافعى» هذا المنظر، وتناهى إليه ذلك الصوت فألفى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع، يدفعه الفضول إلى

تعرّف ما يكون. واستطاع أن يتابع فى صعوبة خلف زجاج الواجهة الكدر مشاهد الرواية بين بطليها: المعلم والصبي!...

الكتلة البشرية تتحلحل ...

شبح «الفولى» عن كثب منها يتخاذل تخاذل الظل الناصل أمام الضوء الكاشف!...

الحشرجة تنقلب زمجرة حبيسة، كزمجرة الإعصار حين يتهيأ الزفيف...

الكتلة تنقض على الظل الناصل، فإذا هو لاعين ولا أثر ...

الإعصار يعصف؛ كأنه دوامة موّاجة، يضيع فيها صراخ الاستغاثة المضعضع ...

وما هى إلا أن انقذفت من الحانوت إلى الطريق تلك المزقة الآدمية، التى تدعى «الفولى»، ينبعث منها تأوه وانتحاب ...

وسرعان ما تهافت حول الصبي الصريع نفر من الفضوليين، ما كاد يتبينهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب وجيع، بلا جريرة ولا ذنب ...

وكان يتطلع يمنة ويسرة باحثا عن منقذه وأمين كنزه الثمين، فلم يره على فرط التلفت والتصفح للناس ...

وعمرت الحلقة بعابرى السبيل، وأخذ الناس يتذمرون

ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الحانوت ، بعد أن تجلى لهم ما برح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح ! . . .

فى هذه اللحظة بزغ المنقذ . . . فاخترق الحلقة ، وشرع يتساءل ، وتطلق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ، وهى تصيح بالجمع أن يتبدد ، فخطا « الأستاذ شافعى » خطوة إلى الأمام ، وقد علا بصدره ، وانبرى يسوى رباط رقبته المنتفخ ، يستمد منه الحميّة والتشجع .

وقال :

هذا الولد مظلوم ، خليق بالرثاء ! . . .

فأرعد المعلم قائلا :

إنه أخبث مخاتل خداع ! . . .

ـــ وهذه الجراح ؟ . . . وتلك الكدمات ؟ . . .

واقترب « الأستاذ شافعى » من الصبي يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتا إلى الجمع :

يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته ! . . .

فهمهم الجمع :

ترقوته ؟

والتفت « الأستاذ شافعى » إلى الصبي ، يقول :

قم يا ولد ! . . .

وما كاد الصبي ينهض ، حتى صاح « الأستاذ شافعي » .

شدّ ما يتألم ! . . .

وفي هذه اللحظة سُمع الصبي يجأر بالشكوى ويتوجع . . وتابع « الأستاذ شافعي » قوله :

إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . . انظروا إليه : يتهالك على الأرض ، مثخنا بجراحه ! .

وما أسرع أن ارتمى « الفولى » على الأرض ، فواصل الشاب قوله :

يا لله ! . . المسكين يكاد يفقد وعيه ! . . .

وما إن أتم قولته ، حتى تمدد الصبي خامد الأنفاس . . .

وصاح الشاب يقول :

هذا ما كنت أخشاه ! ... حقا أن ترقوته قد كسرت ، وهذه أعراض انكسارها . . . يجب أن تستدعى سيارة الإسعاف ، وإلا . . وإلا أفلتت فرصة العلاج ! . . .

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش ، ولكنه ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة شنعاء ، قائلا :

ماذا تقول يا أفندى ؟ . . . أية ترقوة ؟ ... وأى إسعاف ؟ .

ومد قدمه إلى الصبى يغمزه . ويقول :

قم يا ولد ! .

ولكن « الفولى » كان حريصا على الإذعان لنصائح الشاب . فلم يبد فى رقدته حراكا . . . وكان وهو ممدود على أديم الأرض تكسو وجهه الجراح ، وتعلو ثيابه الأحوال ، حريا أن يستثير مشاعر العطف والإشفاق . . .

فتعالت همهمة سخط وتغيّظ بين جمهرة الناس . . .

وقال أحدهم يوجه كلامه إلى المعلم

أليس فى قلبك ذرة من رحمة؟ . . . إن الولد يجود بنفسه ! .

فصاح « الأستاذ شافعى » ، وقد انحنى على الصبى يتحسسه :

الحالة خطيرة . . . أخشى أن يكون قد أصيب بنزف باطنى . . . ألا أجد رحيما يسعفنا ببعض المنعشات ؟ . . .

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والخل . . .

وأقبل « الأستاذ شافعى » على الصبى يدلكه وينشقه ، ثم تركه لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلمه العتيد المتداعى ، من جيب سترته الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟ . . .

فغمغم المعلم ، وقد تغضن جبينه :

مسئولية جنائية . . . .

ــ حقا . . . إنهـــا لمسئولية خطيرة ، تزج بصاحبها فى محكمة الجنايات ! ...

وهم المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تختنق فى زوايا حلقه ، وكان « الأستاذ شافعى » يرقبه بالنظر الثاقب ، فلمح شارب المعلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن .. فصاح على الأثر :

لا أقل من سجن خمس سنين . . . أو حسبت أنه لا حساب ولا عقاب ؟ ...

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :

وحضرتك من تكون ؟ ...

ـ ألا تعرفنى ؟ . . .

ــ لم يسبق لى شرف التعرف . . .

ــ أنا السكرتير الخاص لنقابة الطب الشرعى ، وعضو اللجنة العليا للإسعاف . . .

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :

وسعادتك بماذا تأمر ؟

ـ لا شأن لى بالموضوع ... لا مصلحة لى قط ... على أن أبلغ الأمر للسلطات المختصة ... هـذا كل ما يجب أن أعمله ، أما الإجراءات القضائية فإنها تأخذ مجراها ...

فمد المعلم « فتح الله » يده إلى كتف « الأستاذ شافعى » ، وجعل يربتها فى ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة متلطفا ، وهو يقول :

تعال معى إلى الحانوت نتحدث على مهل ...

وسار به إلى الحانوت ، وواصل قوله :

هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد ربيته ، وليس بعسير على أن أعالجه ، وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به ...

ودخل كلاهما الحانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يغلقه ، وشوهد شبحاهما من خلال الوجهة الزجاجية ، وقد اتخذا ركنا قصيا ، وانبريا يتناقشان ويتحاوران ... ثم شوهدت الكتلة البشرية تدس خفية فى يد « الأستاذ شافعى » شيئا لم يكد يلمسه حتى خفتت حدته فى المناقشة ، وانقطع عن اللجاج .

وخرجا من الحانوت يظللهما الصفاء ...

وسمع الناس « الأستاذ شافعى » يخاطب المعلم بقوله :

سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما فى معاملة الغلام ، ولا تدع غضبك يسيطر عليك ! ...

وأمر بإحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها « الفولى » ، ووثب « الأستاذ شافعى » يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام ! . . .

وما إن ابتعدت عن الحى ، حتى اعتدل « الفولى » فى جلسته ، وتطلع إلى وجه منقذه يبتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره « الأستاذ شافعى » بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه « الريال » العتيد ، ودفع به إلى « الفولى » قائلا له :

خذ نقودك ...

— واللفائف ؟ . . .

— لا حاجة لى بها الآن . . . حسبى ما أضعت من وقتى فى مشكلتك الأولى ، والأخرى . . .

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور . . .

وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة إفرنجية ، أحدهما حديد البصر يعنى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ذا الغطاء المذهب ، وهو مطل من جيب سترته الأعلى ... وبجوار هذا الشاب فتى يافع يلازمه ملازمة الظل ، لا تدرى أآدمى هو بحق أم هو من ذلك النوع البدائى المنقرض من سلاسه الانسان ،

ذلك الذى تخيله «دارون» حلقة الاتصال بين القرد والبشر؟ . . .

فهو على الرغم من جدة حلته ، يبدو مختل الزى بـــلا هندام : حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يبعثرها فى غرارة ، وابتسامة . . . عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشتيم ! . . .

ولشدّ ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

قلت لك دع هذه الابتسامه ... لا تضحك على هذا النحو ... متى تتعلم ؟ . . .

فيطلع إليه الفتى على حاله ، لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجيب ساذج اللهجه :

وماذا تريد منى أن أفعل ؟ . .

ـــ أريد أن تكون كخلق الله . . .

ـــ ألست من خلق الله ؟ . . .

ـــ إنك لحيوان . . . .

ـــ طال عمرك ، وبقى أولادك . . .

وينفرج فمه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح له ضحكة ، كأنها تثاؤبة بشعة فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشمئزاز ، وتعتلج فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلوى كفه تختلج ، ولكنه لا يلبث

أن يرى نفسه وقد قذف فى وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو يصيح صيحة الإمرة :

حـــل موعد الطعام ، فاغرب عنى ، وأرحنى من طلعتك بعض الوقت . . .

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

لا حرمنى الله فضلك وإحسانك . . .

ــ لا تتأخر . . . يجب أن ألقاك فى الموعد . . .

ثم يحسر كمه عن معصمه ، ويلقى بنظرة خاطفة على ساعتــه الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

أمامك ساعة . . . ستون دقيقة فقط . . . أفاهم أنت ؟ . . .

ــ فاهم باسعادة « البك » . . .

إن وقتى محسوب على . . . القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض . . . فحذار أن تتخلف . . .

ــ كان الله فى العون . . .

ــ إن الله تعالى لم يشأ أن يعيننى بعرقى بك . . . لقد زادت متاعبى منذ سقطت على . . . ولكن ماذا أنا صانع ؟ . . . أألقى بك فى عرض الطريق ؟ . . . لك رزق . . . إنما نطعمكم لوجه الله ! . . .

ــ عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك . . . وتذكر موعد اللقاء . . .

ويخرج « شبه الآدمى » يقفز فى مرح ، تراوده شهوات الطعام وألوان المآكل .

منذ يوم الحادثين التاريخيين : حادث السيارة وحادث « المعلم فتح الله » ، تاحت للأستاذ شافعى ، فرصة تتجلى فيها مواهبه على نحو جديد . . .

فكر فى شأن ذلك الصبى ، فرأى أنه إن اتخذه تلميذا يستخدمه فى مثل هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا . . .

وكان « الأستاذ شافعى » فطنا حصيفا لا يتهور ، فهو لا يتقدم خطوة إلا إذا مهد لقدمه موضعا ، فبدأ يصطنع الصبى على نحو يأمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة « المعلم فتح الله » أساسا للعمل ، فسعى فى إلحاق « الفولى » بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد تمثيل الرواية بعد أن أتقن تجربتها ، وأبدع فى إخراجها ، وزادها فصولا إلى فصول ، فقد كان « الأستاذ شافعى » مجددا حقا فى أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة فى الإعادة والتكرار . . .

ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بربيبه وصنيعته إلى صيد جديد ! . . .

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا واتى إنسانا آلفه ، فلم

يجدر به ، وإذا أخلف لم يكن له من عوْد ، فالأقدار التى أخـــذت بناصر « الأستاذ شافعى » ظلت تمنحه العطف والتأييد . . .

فقد وقعت يوما حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول فى خطة ذلك الشاب المغامر ؛ إذ أصيب « الفرلى » فعلا بصدمـــة سيارة كادت تتركه فى ذمة المتون ... فما أسرع أن رفع « الأستاذ شافعى » الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين التى كانت تضمن حوادث هذه السيارة ... فقد ثبت أن الصدمة تركت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » . ولم تكن فى الواقع عاهة يأبه لأمثالها « فولى » ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى ، الذى هو عرضة للجـــلد والاحتمال ! . . .

هنا انفتح لعين « الأستاذ شافعى » مجال تكمن فيه الذخائر والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاطفة المستديمة » ! . .

وعلى كر الأيام اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ؛ إذ وجد « الأستاذ شافعى » نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد فى جد وإحكام ، ولم يكن هذا ليعييه . . .

وبذلك أصبح ذات يوم فألفى نفسه مروّضا حقا لهذا الحيوان

شبه الآدمي، مروضاله على نهج مرسوم وخطة مقررة . لغاية واضحة تمام الوضوح ! . . .

[illegible] أن يتذرع [illegible] والحلم وتكبد المشاق، يغدق الرحمة والحنان أحيانا حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلي يتخذ من الأدوية والسموم مايلائم ملابسات الأحوال ، حتى يستطيع بذلك أن يحيل هذا الحيوان شخصية ماهرة تجيد اللعب في مخاط الحياة : كما يجيد البهلول قفزاته العالية ، يتطوح [illegible] ويسرة ، في حلقات الملاعب . . .

لقد غدا «الأستاذ شافعي» في حياته الجديد مبتكرا مخترعا يحتبس في مكتبه ليرسم الخطط ، ويعد التجارب ، فإذا فرغ من رسمها وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من التمرين ، ثم يجرّره معه كما يجرر الصياد شبكته ، ويرمى به في معمعان الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فإذا هو مملوء الوفاض بالمغنم والخيرات . . .

أما « القولى » فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه في أمر أو نهى . .

لقد وهب أستاذه كامل ثقته ، فلم تكن المخاطر تهزه أو تهوله ،

مادام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعا ...

لا مرية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان لأستاذه أن يريد به السوء ! ...

وأخذ « الأستاذ شافعى » يتنقل فى البلاد مصطحبا صنيعته ، لايستقر له قرار فى بلد واحد . يرتاد المصايف والمشاتى . وحسبه أن يزج بصبيه فى المزالق والمآزق . فلا تلبث المغانم أن تنىء إليه باردة طيبة لا تكلفه عنتا ... فعاش عيش المترفين المتنعمين ، يلقى من مائدته فتاتا لربيبه الصبى ، فلتقطه محبورا تقر عيناه ! ...

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ، فكانت يؤثر منها أضخمها تبعة ، وأثقلها كلفة ...

وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد « الفولى » ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالثوب المرقع ، بقيت فيه المزق ، ولعب بأصله العفاء ! ...

وأصبح « للفولى » اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصحات يقضى فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها ، من أيام السلامة والعافية ...

وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ، فإن عيش المشافى والمصحات أهنأ وأمرأ ، وإن حياته فى تلك الدور لهى حياة رفاهية ومتاع ؛ إذ هو بين يدى الممرضات يتعهدنه ،

ويلاطفنه ، ويقدمن له أنظف الملبس ، وأطيب الطعام والشراب . .

وتعاقبت الأيام ، و « الفولى » مطمئن بحياته ، رافه البال ، يعيش فى قفص من عاداته المستديمة ، كما تعيش القوقعة فى محبس من صدفتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية . . .

ولكن « الأستاذ شافعى » لم يعد يشارك الصبي هذه الطمأنينة ، فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبي لن يعيش طويلا ، إذا تعرض لصدمة أخرى . فوقع هذا النبأ على « الأستاذ شافعى » وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليّا . واضطر أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه بموفور الرعاية ...

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد « الفولى » يوما ، شعر بصرح آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب شيئا لمثل هذا اليوم ، اليوم العصيب المنتظر ... فقد كانت المائدة الخضراء ، ومناضد الشراب ، ومجالس الغوانى ، تتناهب كسبه ، فلا تبقى ولا تذر ...

هل من سبيل لإنقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق به ، فتسلمه إلى البوار ؟ ...

كان مرة فى « السينما » فشاهد رواية إجرامية ، دارت

أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، نخابه الموضوع ، وراقته الفكرة ، ومضى يتساءل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلما لإنقاذ مستقبله ؟

لـــم لا ؟ ...

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنته تلك المسحة الشريرة ، وأحس من قرارة نفسه باعثا يحدوه على عمل فاصل وأمر محتوم ... إنها الورقة الرابحة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟ .. إن حياته كلها كانت اليوم ربحا لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضا مواتاة حظه ، وإنه لعلى يقين أنه لن يتنكر له ...

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة ، حتى تغنيه عن تلك المغامرات الصغيرة التافهة التي هي غُلالات عجاف ! .

في هذه اللحظة طالعته صورة « للفولى » ملقاة على مكتبه ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن قسماته الحيوانية ! كأنه يذكره بفضله عليه ، فتأمل الصورة حينا بعين مغيظة ، وما عتم أن قذف بها بعيدا ، وراح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ...

« الفولى » ... من هو ؟ . . . بل ما هو ؟ . . . غِر مأفون ، وسيموت يوما ، ما من ذلك بد ، فماذا إن تقدم به الأجل ؟ ... كثير غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت ، وهم

في ريّق العمر، وفي الصبا النضر، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير ا...

« الفولى » ... إنه ميت لا محالة ... ولكن المهم من أمره إذن أن يموت في الوقت المناسب على الوجه المناسب ، فيضمن لموته قيمة لا تضيع ، وإنما تكون جزاء لولىّ نعمته ، الذى انتشله من الحضيض ، ورفعه فى مراتب الحياة درجات ...

انفرج الباب فى هذه اللحظة عن « الفولى » يخبّ فى حُلته الجديدة غير المهندمـــة ، وهو يحيي « الأستاذ شافعى » بتلك الابتسامة المثيرة للأعصاب ...

فتدانى منه « الأستاذ شافعى » وربّت كتفه ، وهو يقول :

سنخرج معا ... أمتأهب أنت ؟ ...

— أنا طوع أمرك ... إلى أين ؟

— سنمضى إلى بعض زيارات ... زيارات هينة ...

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف ، ورمى بها نحو « الفولى » فى ملاطفة ومداعبة ، فلقفها الصبي ، وهو يترنح من طرب ...

مضيا ... متجهين إلى إحدى شركات التأمين .

وانقضى أسبوعان ، و « الأستـاذ شافعى » يصطحب ربيبه متنقلا به بين شركات التأمين ، يعرضه عليها مستشيرا إياها فى التأمين على حياته .

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام، حتى استقر قراره بعد لأى ، على اختيار إحدى الشركات السخية فى شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبى ، فطارح «الفولى» بين يدى الأطباء يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة متفحصين إياه فى عناية واهتمام وحذر، واستعانوا فى فحصهم بتحليل الدم وباتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبى فى أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر فى اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع . حسبه أن يحس الغبطة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد ، من حوله ، يشمله باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدسها «الأستاذ شافعى» فى جيبه فى عناية واحتراس . . . وما إن ترك المكان حتى التفت إلى «الفولى» يقول له وعيناه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟ . . .

— ماذا ؟

فوقف «الأستاذ شافعى» يتأمله بعينى النسر الشره ، ثم قال :

إن حياتك التى لم تكن تساوى قشرة بصلة يا سيد «فولى» ، قد أصبحت منذ اللحظة تساوى آلافا من الجنيهات . . .

لحماق «الفولى» مبتهجا، مهتاج الخاطر، ينشق فمه عن ابتسامته الكريهة البلهاء، وهمهم:

كيف . . . كيف هذا؟ . . .

— ذلك هو الواقع . . . لقد رفعتك من لا شيء إلى كل شيء، لقد جعلت لحياتك قيمة غالية . . . افهم أنك أصبحت الآن عظيما جدا أيها الحيوان! . . .

فتضاحك «الفولى» مترنح الأعطاف؛ وقال:

طال عمرك؛ وبقى أولادك . . .

هنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ صـــلة «الفولى» بأستاذه الشافعى»؛ مرحلة، يلعب فيها القدر لعبته الكبرى . . .

لقد أمّن «الأستاذ شافعى» على حياة «الفولى» بمبلغ ضخم، وجعل نفسه وارثه الأوحد . . .

لقد توضحت المسألة . . .

إن الذى كان يخشى «الأستاذ شافعى» وقوعه قبل اليوم، أصبح الساعة هو الذى يشتهيه ويتعجله، ويرى فيه فردوس أحلامه . . .

عليه الآن أن يعمل بجد . . .

وسرعان ما شمر عن ساعد الاهتمام، واستأنف مراجعته لمشروعاته، ينمقها ويجيد إخراجها، ويحملها بما يحملها أحد وأمضى! . . .

وتأهب « الفولى » لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام !... كانت الخطط السابقة تتسم بالحيطة والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة ، يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة...

وشرع « الفولى » يدرك ببصيرته الحيوانية ، ببصيرته التى تثيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصرا جديدا قد اندس فى مغامرات اليوم...

ولكن ماهو ؟...

ذلك مالم يستطع التفطن إليه ، والكشف عنه...

وأحس يوما فى إحدى المغامرات يد «الأستاذشافعى» تدفعه دفعا ، تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط فى سوالف المغامرات كانت تلزم « الأستاذ شافعى » أن يظل بعيدا عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة...

وماهى إلا أن وجد « الفولى » نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان الإخفاق نصيب المغامرات المدبرة ، وتأصلت فى قلب « الفولى » مخاوف لم يكن يدرك تمام الإدراك مأتاها... فكان وهو على أهبة التقحم فى ميدان الخطر يشعر فى اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فإذاهو قد جانب الميدان، وأطلق ساقيه للريح...

أثار هذا الإخفاق المتتابع غضب « الأستاذشافعى » ، فكان

يعنف بربيبه أقسى تعنيف ، ويحضه على الإقدام والتشجع ، ويسائله:
ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟ ...

فلا يجيب « الفولى » إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة وارتياح ...

وكثيرا ما هم « الأستاذ شافعى » أن ينحى على ربيبه بالضرب الموجع ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه بلاطفه ويتملقه ، ويلاينه بمعول الأمانى ... فكان « الفولى » يحدق فيه طويلا ، بعينيه الكابيتين الكئيبتين ؛ كأنه يريد أن يستكنه هذا الملق ، وما ينطوى عليه من سر ...

وسرعان ماينخرط فى بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة والانقباض ؛ كأنه تائه يضرب فى بيداء ماحله تعوى فيها الرياح ...

احتلت براج « الأستاذ شافعى » كل الاختلال ، وخلا إلى نفسه ، يتساءل فى أمر هذا الصبى المعتوه ، وما عراه من تغير حال ...

أى شىء أصاب الصبى ، حتى جعله يتخذ خطة أخرى فى مجابهة الصعاب ، وملاقاة المخاطر ؟ ...

لقد كان من قبل مذعنا لإرشاد أستاذه ، منجزا لخططه فى استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان ...

فما خطبه اليوم يحجم ، ولا يبدو طيعا كما كان ؟ ...

ماذا جرى ؟ . .

هل أحس أن نيـــة سيده قد تغيرت نحوه . وأنه يأتمر به ليهلكه ؟ ...

لا ريب فى أن الصبى هو هو . فعقله هو عقله . و فطنته هى فطنته . ليس بقادر على أن يستشف مجهولا . ولا أن يستبطن شيئا عما غاب ! ...

أثمة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر ، وتجلو السرائر . وتتوضح بها النيات ؟ ...

أفى مستطاع الغرائز — غير مستعينة بالعقل والإدراك — أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول والفطن ؟ ...

كان «الفولى» مستسلما مطمئنا ، يوم كانت نيات أستاذه «الشافعى» نحوه بيضاء ، لا تريد له هلاكا . بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . . ولكن الصبي اليوم ينقلب إلى الضد . فيتقيه ويحذره ويستريب به . لا لسبب إلا أن « الأستاذ شافعى » فى سريرة نفسه التى لا يلمها أحد . قد فكر فى الخلاص من ربيبه . .

أترى « الفولى » بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما يهدف إليه أستاذه من أغراض ؟ ...

عالج « الأستاذ شافعى » ربيبه بمختلف الذرائع وأشتات المغريات ، وإذ يضيق به ذرعا ، لا يجد بدا من أن يتقصّده بالضرب المبرّح ، والإيذاء الأليم ! ...

فكان « الفولى » يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروعك منه إلا كشرة ضارية تعلو فمه ؛ كما تكشر الذئاب المتأهبة للانتهاش ! ...

ولا يكاد « الأستاذ شافعى » يرى « الفولى » قد كشر عن أسنانه على هذه الصورة البشعة ، حتى يتقهقر عنه ، وقد أوجس خيفة منه ...

وانتهى الأمر بأن أعلن « الفولى » جهرةً إضرابه عن تنفيذ أى مشروع يراد عليه ، فأسقط فى يد أستاذه « الشافعى » ، وذهبت محاولته كلها أدراج الرياح ... وتلبّس « الفولى » بعناد ، كما يعاند الحمار إذا حرن ، وتأبى أن يتزحزح عن موقفه ، مهما يكن من أمره ...

ونشبت بين الصبي ومروضه عداوة مضطرمة ، كان من العبث إخفاؤها ! . . . وكان « الأستاذ شافعى » يكاشف صبيه بالعداء فى ضجة وعنف فأما الصبي فقد ظل منطويا على ضغنه الخفى ، يجلس الساعات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحدق فى الفضاء أمامه ، بعين تائهة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيته على

أثر رجفة تنتظم أوصاله : إذ يتراءى فى مخيّلته « الأستاذ شافعى » وقد عاجله بضربة على أم رأسه ، تسقطه مضرجا بدمه . . .

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة ... « الأستاذ شافعى » جالس إلى مكتبه ، وهو عابس ينتفخ ، والصبى متجمع فى ركن قصى يخالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألفى « الفولى » نفسه يصر بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ، وتحفز للذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه . . .

تواصلت الأيام « والفولى » غريق فى عناده وكآبته وصمته وبدأ « الأستاذ شافعى » يجد ريح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ، وأقبل على ذكائه يهزه ويعتصره ، ولكن عزّ المعين !

ومرة كان الغريمان على حالهما فى حجرة المكتب ، وإذا « الأستاذ شافعى » ينهض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر الوجه من الغيظ ، وصاح « بالفولى » قائلا :

تعال هنا ياولد ! . . .

فرماه « الفولى » بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك ! . . .

فردد « الأستاذ شافعى » صيحته :

تعال هنا ياولد ! . . . هل خرست ؟ . . .

فأشاح « الفولى » برأسه يأبى الاستجابة للأمر ، فخطا إليه « الأستاذ شافعى » ، فما إن رآه « الفولى » مقبلا حتى نهض دفعة واحدة ، فزأر « الأستاذ شافعى » قائلا :

لماذا لا تطيع أمرى ؟ ...

فهمهم « الفولى » فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه سحابة كدرة مفزعة :

هكذا فعلت ! ...

— وإنك لتتوقح فى القول ؟

— هكذا أنا ! ...

فنفرت أوداج « الأستاذ شافعى » وألقى يده تتعالى ، ثم تهبط بصفعة عاصفة ، فاهتز لها كيان الصبى ، ولكنه لم يَزُل عن موقفه ، وكل ما كان منه أنه انقلبت عيناه بقعتى دم فائر ... وهمهم وهو يصرّ بأسنانه صريرا يكاد يحطمها :

لا تضرب ! ...

فتحمس « الأستاذ شافعى » ، وصاح مجلجلا بصوته :

أضربك وأضرب شياطين أبيك ! ...

فتابع الصبى صرير أسنانه ، وجمجم .

قلت لك لا تضرب ! ...

ـ إنك خارج الآن معى ! . .

ـ كلا ! . . .

ـ قلت لك إنك خارج !...

ـ لن أخرج ! . . .

وارتفعت يد « الأستاذ شافعى » ، وما كادت تهبط بصفعتها حتى التقت بيده متحجرة جبارة ، تمسك بها فى قساوة وعنف ...

وسرعان ماالتحم الخصمان وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص ، على أن ينال من خصمه جهد مايستطيع ، بكل ما أوتى من قوة وشراسة . . .

فكانت الضربات تتهاوى هنا وهنالك ، وكان الخش والخدش يتناثران ، ذات اليمين وذات الشمال . . .

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلاينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها . . .

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية ، لاتعرف غير الضراوة والإفتراس ...

وجرت المعركة ، لايسمع فيها إلا هرير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللكمات والضربات . . .

وتدانى الجسدان من الشرفة ، وسرعان مااشتبكا فى عراك

على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين فى الهواء ...

ولم تكد صيحتهما تعلو ، حتى ذهب بها صوت سقطتهما العنيفة من حالق . . .

فارتمى الجسدان هامدين ! ...

وتجمع حولهما السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطى ، والناس حوله يصفون له ماوقع فى تضارب واختلال . . .

فى هذه اللحظة الهوجاء ، وقعت عين الشرطى على شىء أبيض يطل من جيب « الأستاذ شافعى » ؛ وكأن هذا الشىء يحاول جهد الإمكان أن يفسح له مثابة فى عالم النور ، ليعلن وجوده فى وضوح . . .

فاجتذبه الشرطى يتعرف ماهو ؟ . . . فإذا هو غلاف كبير ، مكتوب على جبينه بالخط العريض :

وثيقة التأمين على الحياة ! . . .

ذات اللثام

سيدتى :

لاريب أنك تعجبين ، إذ أوجه إليك هذه الرسالة ، بعد أن انقصم مابيننا من أسباب التواصل الروحى ، منذ عشرات السنين..

لقد تعارفنا فى مؤتنف الشباب ، ولكنى الآن أسائل نفسى : على أى نحو كان هذا التعارف ؟ . . .

ثمة صلة سلفت بيننا ، ما أعجبها من صلة ...لست أدرى فى يومى هذا ، ماذا كان لونها على وجه التحقيق ؟ . .

كنا نعد نفسينا صديقين ، أوفى ما نكون تصافياومودة ، على حين أننا ظللنا لايرى أحدنا صاحبه فى عالم المنظور ، وإن تجلى كلانا على أخيه فى عالم الأطياف ، ودنيا الأرواح ! ...

وما أنسى أن هذا التواصل الروحى كان أسمى مكانة وأروع مقاما من مألوف الصداقات بين الناس . . .

تواصل امتد بيننا عاما وبعض عام ، ثم انطويت صفحته بعد ذلك مدى هذه الأعوام الطوال . . .

إنى حين أنبش ذلك الماضى السحيق ، أسائل نفسى فى حيرة وعجب :

أكان بيننا حقا هذا التواصل الروحى ، أم أنه باطل من الوهم والوسواس ؟ . . .

ولكن أنى لوهم كاذب ، ووسواس باطل ، أن يتمخض عن تلك الحقائق الناصعة التى وجهت حياتى وجهة معينة ؟ . . .

أآدمية أنت حقاً ، عشت فى هذه الدنيا كما أنا أعيش ، أم كنت خيالا صاغه القدر لى مزحة وملهاة ؟ . . .

اليقين الذى لا يخالطه ظن أن تراسلا كان بيننا ، إبان ذلك التواصل الروحى ، فقد تناهت إلى رسائل منك ، أما رسائلى إليك فكانت مقطعات شعرية ، أنظمها وأنشرها فى إحدى الصحف ؛ لتكون جواب رسائلك إلى . . .

لم يكن من سبب مادى بينى وبينك إلا تلك الرسائل ، وإنه لعزيز على أن أتفقدها الآن ، فلا أجد منها واحدة أبقتها لى تصاريف الأيام . واحدة تؤكد ثقتى بأنك كنت شخصا حقيقيا ، لا طيفا ولا عروس أحلام ! . .

شد ما بحثت عن هذه الرسائل ، فلم أعثر لها على أثر ، وقد كانت فى الأمس البعيد ذخر خزانتى ، أحرص عليها حرص الشحيح على نفيس المتاع ! . . .

كانت قبلتى التى أوجه نحوها وجهى ، أتملاها وأستملى منها

إلهامى ، بل كانت حافزى الذى يدفع بى قدماً فى غمرة العيش ومزدحم الحيـاة .

هأنذا اليوم أتنفس أنفاس شيخوخة هادئة رخية، لايروعنى شىء من جماح الشباب ، وثورة العواطف. فماذا دهانى الساعة حتى خطرت أنت ببالى،وهيمنت على نفسى، وأصبحت لى شغلا شاغلا؟

كنت أقلب منذ قليل كتابا من كتبى القديمة ، فاسترعى انتباهى وريقة لعبت بها يد البلى مدسوسة بين الصحف ،وفى تلك الوريقة تبينت حروفا ناصلة ، واستطعت بعد لأى أن أقرأ بها أبياتا من شعرى العتيق ، تضمنت نفثة من الصدر ، وبثة من الجوى . . .

هذه الأبيات هى إحدى رسائلى إليك . . .

قرأت ما فى الوريقة ، فلم يهتز قلبى لما حوت ...

إنه شعر من هذا العبث الذى يجرى به أقلام الشعارير ،ولطالما سودت الأوراق بمثل هذه الأبيات العجاف ...

قصارى ما كان من وقع هذه الوريقة البالية فى نفسى أنها أثارت سوالف أشجان ، ورواقد ذكريات ، فإذا أنا أمام عهد قديم ينفض عنه الغبار، ويخلع الدثار، وتتجلى به تلك الفترة الشاذة من أيامى ، وإذا أنت ـ يا سيدتى ـ تبدين قبالتى ، فأستشرف طيفك بعد غيبة حقبة تترابط فيها عقود من السنين ...

إنك لتعودين اللحظة إلى ، وإخالك تبسمين ، وكأنى بك تهمسين قائلة لى :

قد أكون طيفا ، وقد أكون وهما ، ولكن مابرح لى وجود ثابت فى نفسك ، وأثر باق فى حياتك ، هيهات أن يسبل الزمان عليه ستر العفاء ! . . .

حقا إنك لأثر لا يتطرق إليه الفناء ، وكيف يمحى وحياتى الراهنة فى وضعها القائم ليست إلا صوغ يمينك ، وخلق إرادتك . وما يسوغ لى أن أكون المنكر الجحود ! ...

قد تكونين اليوم فى ربقة الحياة ، وقد تكونين فى ذمة المنون ، وقد تكونين فكرة من نسج الوهم والخيال ... ولكن هذا لا يردنى عن أن أخط تلك الرسالة ، أعبر فيها عن بعض ما هو كامن راسب فى وليجة نفسى .

أعترف الساعة بأن تلك العاطفة السالفة لم تكن إلا ضربا من الحب القاهر ... وعلى الرغم من فورة عاطفتى يومئذ ، فإنى لم أكاشفك بدقائق شأنى ، فكل ما ناجيتك به مقطعات شعرية جياشة ملتهبة شديدة الإغراق فى الخيال ! . . .

والآن ، بعد انقضاء ذلك الزمن المديد ، أرانى شيّقا إلى أن أفضى إليك بذات نفسى ، وأصارحك بما لم يجريه القلم يومذاك من أمرى .

لقد حان أن أطلعك على طوايا حياتى ؛ فذلك هو أنسب الأوقات للمكاشفة والإفصاح ...

لِمَ لَمْ أفض إليك بهذه الحقائق ، إبان تواصلنا بذلك البريد العجيب ؟ . .

لم لبثت أكتمها تلك الأعوام ولم أفكر فى الإفضاء بها إلا اليوم ؟ .

أما كان خليقا بى أن أباديك بكل شىء فى فترة التواصل ، الشباب جديد ؟ ...

ثمة قوة خفية كانت تسيطر علىّ ، وتصرف أمرى ، ولا تدعنى أقطع من دونها رأيا ...

ماذا كان يحدث ، لو كنت أفضيت إليك بكل شىء عندى ؟ ...

ماذا كان يحدث ، لو كنت رأيتك ، وتم لى لقياك ؟ ...

أكانت الأمور تجرى فى أعنتها التى جرت فيها ، وتسلم إلى ما أسلمت إليه من مصاير ؟

لقد كانت معرفتى إياك على ذلك الوجه ، مَفصلا فى حياتى بين عهدين :

ماض بغيض ! ...

ومستقبل بهيج ! ...

رسالتى إليك الساعة عرفان بجميلك ، وإقرار بما كان لتعارفنا

من فضل فى نقلتى من ضيقة وظلمة وإقتار ، إلى ميسرة ونضارة ورُواء !

حقا إن الإنسان أعجوبة الدهر . . .

إنه ليختزن بين جنبيه قوى عجيبه تزخر بها نفســــه ، وإن . . يرة النفس من هذه القوى لتظل محجوبة مستورة ، قد لا يدرى صاحبها من أمرها أى شىء . . .

واعجباه لامرىء يتلمس خارج نفسه السبيل إلى تحقيق رغابه فى السعادة والهناءة ! . . .

ألا إنه لو أنصف لعدل ببصره إلى أغوار نفسه يسبرها ؛ ليكشف فيها عن تلك الكنوز ، يملأ منها وطابه ما وسعه أن يمــلأ ! . .

تلك الكنوز من النشاط والفورة وأسباب الرغادة والإسعاد ! . . .

تلك الكنوز من الآمال والمطامح التى تتوهج جذوتها ، فتشيع فى أقطار النفس الحرارة والحيّة والانبعاث ! . . .

ولكن المعضـــلة المستعصيه هى : كيف يهـــتدى المرء إلى مفتاح تلك الكنوز ؟ وكيف يتعرف مكانها من قرارة نفسه ؟

فى أساطير الأولين حديث عن مرآة سحرية إذا وفق إليهـا امرؤ تسنىّ له أن يستبين على صفحتها خبايا ما تشرئبّ إليه نفسه من أوطار ورغاب ، فلا يلبث أن يسلك الطريق إليها على هدى ونور . . .

ولقد تاح لى أن أجد هذه المرآة السحرية التى دلتنى على ذلك

المفتاح المنشود ، وهدتنى السبيل إلى مكان الكنز الكمين . . .

كنت أنت مرآتى السحرية ! . . .

بك تجلى لى جوهر نفسى ، و تقشعت الغشاوة عن بصيرتى ، وانزاح لى القناع عن سر الحياة ! . . .

لقيتك وأنا فى حالة من الإقفار والبأساء ، تدف حوالىّ أجنحة اليأس . فإذا أنت تخرجيننى من حال إلى حال ، وتهدينى فى الحياة صراطا سويّا ، كأنى منه فى روضة غنّاء !

يومئذ كنت قريب عهد بفقد أبى ، عائلى الذى لا عوض لى منه ، بل كل ما كان لى من ذوى القربى . . . ولم أكن قد استكملت دراستى بعد . . . وما كانت سنى تزيد على الثامنة عشرة . . . فوجدتنى بين عشية وضحاها وحيدا منقطعا ، لا عون لى على الحياة إلا ميراثى من معاش أبى ، وهو مبلغ ضئيل لا يسد فاقة ، ولا يكاد يغنى من جوع . فاضطررت أتخلف عن الدرس ، وأن أقنع بغرفة فى سطح منزل فى زقاق . . .

وتطلعتْ نفسى إلى عمل أتقوت به ، ولكن ما كان أشق على أن أبلغ فى هذا السبيل مأربا ، فإنى نشأت تنشئة دلال واتكال ، فلما صرت فردا فى معترك الحياة أحسست الخجل والتهيب ، وقر فى ذهنى أنى لا أجيد عملا ولا أصبر على جهد ، وقد زاولت شكولا

من الأعمال ، فكان نصيبي الإخفاق الوشيك ، واعتقدت أنى لست إلا آلة علاها الصدأ قبل أوانه، فأكل منها حتى تعطلت... وساورتنى فكرة الانتحار ، ولكن من أين لواهن النفس ، خوّار العزم ، أن يمارس هذا العمل المتهور الجسور ! . . .

وقبعت فى غرفتى ، مستخذيا متخاذلا ، لا أريم مكانى ، وأصبحت كأنما أنا حيوان نفور لا يأنس بشىء ، حتى ليضيق بالنور !

وبلغ بى الشظف أشد مبلغ ، واضطربت بى الحال أسوأ مضطرب : شعر أشعث أغبر ، وكساء خلق رث ، ومطعم تافه غث ، ونوم قلق ، ويقظة حالمة ! . . .

وكان لى فى عهد الدراسة ميل إلى الأدب ، وولع بالشعر ، فلم أجد متنفسا فى وحدتى الجافية الجوفاء إلا أن أطالع بعض ما عندى من دواوين الشعراء ، ووجدتنى مغرى بالشعر الصوفى ، والغزل العذرى ، فأقبلت عليه أتخذه لى متاعا وسلوى . وكنت أرانى بعد أن أرتوى من المطالعة : كأنما قد خفت بى أجنحة إلى آفاق علوية ، وهامت بى فى أودية الأحلام ! . .

وترادفت علىّ أيام تطالعنى بهذه الحياة العجيبة التى لذت لى ، فجريت فى عنانها طلقا جموحا . . .

ويوما ، وأنا فى غمرة هـــذه المطالعات لأشعار المتصوفة

والعذريين ، وقع لى حادث طارىء ، لا أدرى أكان وقوعه فى أحلام اليقظة أم فى رؤى المنام ؟ . . .

لقد تراءى لى وجه نسوى فاتن ، وإنى لأصفه بالفتنة على حين أنى أتبين من قسماته شيئا . . .

لمح لى هذا المحيا خلف خمار ليس بالشفيق ولا بالكثيف فكنت أحس فتنته ، كما يحس المرء حرارة الشمس خلف الغمام .

لبث هذا المحيا قبالتى فترة قصيرة ، شعرت أثناءها بقوة سحرية تجذبنى إليه ، وتصلنى به ، وما عتم المحيا أن توارى عنى . . .

ولو جاز لى أن أعتقد أن ذلك كان رؤيا ، لكانت هذه الرؤيا ضربا فريدا لا عهد لى بمثله من قبل ، فإنها أودعت قلبى أثرا ملأ على أقطار نفسى جميعا ، وشغل وقتى كله !

وانصرم يومان قضيتهما كما أقضى سوالف أيامى : محتبسا فى وكرى ، أطالع تارة وأتأمل تارة أخرى ، لا ينقطع تفكيرى لحظة عن ذلك الطيف العجيب ، وتلك الرؤيا الغامضة ، أحاول عبثا أن أكتنه السر فى حيرة واضطراب .

وفى أمسية يومى الثالث ، تبلج لعينى ذلك المحيا الصبيح ، على حاله التى رأيته فيها أول مرة ، بيد أنه الساعة أسطع نورا وبهاء . . . وأحسست كأنه يناجينى . . .

لم تختلج له شفة ، ولم يند عن فمه صوت . ولكن مناجاته كانت جلية وضاحة تترسل إلى أعماق نفسى ...

لقد تأدت إلىّ تلك النجوى معانى صافية ، وإن لم تتخذ لها أوضاعا من كلمات وحروف ...

ماشأن الحروف والكلمات بحديث النفوس ونجواها ؟ ...

إن تلك الرموز من ألفاظ ومصطلحات ميدانها العقل وحده ، فأما النفس فإنها فى غنية عن ذلك ، بما لها من قدرة على تفهم العواطف ، والتقاط المشاعر واكتناه السرائر ...

لم تكن الحروف والكلمات إلا وسائل وقوالب لإبلاغ المعانى والصور ، فليت شعرى ماحاجة المرء إلى هذه الوسائل والذرائع ، إذا أوتيت النفس قوة الإبلاغ والتراسل فى صمت وسكون ؟ ...

وأيهما أصدق فى الإبلاغ والتعبير ؟ ... أن يتم التواصل بأساليب من الترجمة يتعاورها الإخلال والنقص والقصور ، أو أن يكون التواصل مباشرا تتجلى به نفس على نفس ، وتمتزج به روح بروح ؟ ...

أليس كلما استنارت البصائر ، وصفا جوهر النفوس ، وترفعت الأرواح عن مظاهر الحياة المألوفة ، كان التواصل أروع وأسمى ، والتفاهم أدق وأوفى ؟ ..

لم أكد أخلص من نشوتي بهذه الزورة الثانية ، حتى شعرت بإشراق في وجداني ؛ وألفيتني كأنني ألم شعثي ؛ وأتجه وجهة معينة ، وأتخذ لي غاية مرسومة ، وإذا بي أخط على القرطاس باكورة شعري . . .

كانت هذه الأبيات تحية لذلك الطيف ، جعلت عنوانها :

« إلى ذات اللثام ! ... »

وما إن أتممت نظمها ، حتى رحت أتغنى بها ، مستعيدا متطربا ، يملكني زهو وإعجاب . . .

وعز علي أن أستأثر بهذا الإعجاب لنفسي ، ورأيت أن من حق الناس أن يشركوني فيه .

إن الكنز إذا ضن به صاحبه على أعين الناس ، أضحى لا شأن له ولا خطر ... قيمة الكنز في معرفة الناس إياه ، وانتفاعهم به ...

ولكن أي ناس أولئك الذين يعنيني أن يشركوني المتعة بهذا الشعر الذي أودعته قبسة من الروح ؟ . . .

ليس يعنيني أن يطلع أحد على هذه الأبيات ، قدر ما يعنيني أن تقرأهـــا هي . . .

هي ! . . .

من تكون ؟ . . .

طيف يزورنى فى هدأة من الليل . . .

أيكون لهذا الطيف وجود فى عالم الأحياء ؟ . . .

وشرّدت بى الأفكار كل مشرّد ، وعرانى ارتياب فى شأنى ؛ أصحيح أنا سليم الفكر ؟ ... أم أسير هواجس ووساوس تدعنى كأنما أصابنى مس ؟ . . .

على أنى خلصت من هذا الاضطراب كله برأى حاسم ، لا منتَدَح عنه ، هو أن أنشر القصيدة فى إحدى الصحف السيارة ؛ لتطلع عليها « ذات اللثام . . . » .

وهرعت من فورى أترك الدار ، فقصدت أستاذى فى العربية إبان عهد الدراسة ، وكان قد انقطع عن التعليم ، وأقبل على الصحافة ، فأنشأ له مجلة ، فرجوته أن ينشر لى تلك الأبيات ، وطفقت أنشده إياها فى حمية واندفاع . فتناول الورقة منى ، وسكن من روعى ، ووعدنى بنشر الأبيات فى مجلته « النجم » .

وصدقنى الأستاذ وعده ؛ فقد اكتحلت عينى بمرأى الأبيات فى المجلة بعد قليل ، فعجلت بنسخة من المجلة إلى البيت ، وانفردت بها فى غرفتى ، وانطلقت أقرأ القصيدة جهير الصوت ، كأنى ألقيها بين يدى « ذات اللثام » . . .

ووجدتنى أتهالك على مقعدى أقلب الفكر : أتقع عينها على

بالمجلة فتقرأ الأبيات ؟ ماذا يكون وقعها من نفسها ؟. . .

وانتظمتنى سنة من نوم ، وسرعان ما طالعنى المحيا الصبيح خلف لثامه ، وهو على حاله من التخفى ، لا أتبين من قسماته شيئاً، ولكنه كان باهر السنا . . . وشعرت أن ابتسامة ترف على شفتيه، وكأنه يعرب لى عن غبطة ورضا ! . . .

قضيت يومين وأنا فى شبه حمى ، وفى صبيحة اليوم الثالث وقع بصرى — أول ما وقع — على رسالة ، قذفت لى من عقب الباب . . . ألى هذه الرسالة حقا ؟ . . . وممن وليس لى بأحـــد صلة ؟ . . . من فى الدنيا يأبه لوجودى ؟ . . . ومن فى الدنيــا يعرف لى مكان وجود ؟ ...

ثمة شخص واحد ،كائن مستور ، هو الذى يتصل بى ، ويعنى بأمرى . . .

ورحت أقلب الرسالة بين يدى، ثم انثنيت أفض غلافها مرعش البنــــان ! . . .

ما كذبنى ظنى ! . . .

وقرأت :

« سيـــدى

هززت نياط قلبى برائع قصيدك ، فى كل لفظة من أبياتك

خلجة من خلجات النفس ، تضطرم وتتوهج ، وماهذه القصيدة إلا لحن شائق يسمو بالمشاعر فى علوى الآفاق ... وإنى لأقرؤها وأقرؤها ، فكلما لج بى التكرار تجلت لى معان مشرقة ، مختلف ألوانها : كما تضوأ الجوهرة تحت الشعاع مختلفة الألوان . تلك كلمات أخطها إليك ، ما أغناك عنها ، ولكننى لم أستطع كتمانها ، فأنا أبلغها إليك على استحياء ، مشفوعة بتحايا الإعجاب والإعزاز

ذات اللثام » .

رفعتُ عينى عن الرسالة ، محدقا فى عرض الغرفة ...

لقد وقعت المعجزة ! . . .

ليست الحياة عقيما لا تتمخض عن معجزات . . .

لا مستحيل فى الوجود . . .

ما قد نظنه عصيّا أو ممتنعا أو محالا ، يمكن أن يوجد ميسورا إذا لاءمته ملابساته ، وواتاه إبّانه ! . . .

طال ترداد النظر فى الرسالة ، أقرؤها مبدئا ومعيدا ، وأجهر بقراءتها مرة ، وأخافت بها أخرى . . .

وتسربت فى شعاب نفسى غبطة وراحة : كأنى كنت فى سفينة تعابثها غوارب الموج ، وتتلعب بها نكباء الرياح ، ثم أسلمنى سعد الحظ إلى شاطىء سلامة وأمان . . .

قلت لنفسي :

وافاك اليوم يانفسُ من يرعاك ، ومن يقاسمك شعورك وهواك ، فطيبي ثم طيبي ، وتملى بهجة الحياة ! . . .

وخرجت من فوري إلى إحدى الرياض ، وقضيت وقتى أتطلع حولى فى مراح ، ووجدتنى أنظم أبياتا أخرى ، جعلتها جواب الرسالة ، وأودعتها عاطفة جياشة وشكرا على حسن الصنيع ! ...

ومضيت بالقصيدة إلى أستاذى ، فتقبلها بقبول حسن ، واستبقانى عنده غير قليل من الوقت ، يسألنى ماشأنى ، ويتعرف خبرى . ثم ألقيته يعرض على فى لهجة أب حدب أن أعمل فى مجلته ، لقاء مكافأة معينة . فما كان أسرع استجابتى ! . . .

واضطلعت من فورى بما أسند إلى من عمل ، وقد أفعمت نفسى حيوية وحمية ... واستمر عملى فى المجلة ، يزداد نشاطى يوما بعد يوم ، ويقوى حرصى على أن أبلغ رضا أستاذى الذى أعلى لذلك العمل الكريم ! . . .

ولاحظت أنى أنام نوما لايعكر صفوه معكر ، وأخذت أعنى بخاصة شأنى ، وأحسست بأنى أقبل على الطعام فى شهية ، وأتأنق شيئاً فى ملبسى وزينتى ؛ وكلما سرت فى الطريق تمثل لى وجه يرقبنى من وراء حجاب ! ...

توليت بنفسي الإشراف على نشر القصيدة الثانية ، فابتهجت بظهورها فى المجلة ابتهاجى بأختها من قبل ، وقضيت فترة من وقتى مهتاجا أفكر فى شىء ذى بال ...

ومضى يومان يزداد بى الاضطراب ، أترقب شيئا يحدث ، وأخشى أن يطول ترقبي ...

استبد بى القلق . فسهرت ليلتى الثالثة نافر الجفن ، ثائر الأعصاب . وتهيبت الانهزام ، وأحسست أن قصور الأمانى تترنح تحت العواطف الثقال ...

وظللت ساهدا حتى ساعة السحَر ، ثم انكفأت على مرقدى ، فتملكنى نوم لم أصح منه إلا قبيل الظهر . فما إن استيقظت حتى وجدتنى أدلى بنظراتى إلى عقب الباب ، فلمحت الرسالة ، وسرعان ماقفزت إليها قفزة الصديان ، حرّقه الظمأ ، فى هجير فلاة ، فإذا ينبوع ينبجس منه ماء نمير !

كانت الرسالة تحية رقيقة من صاحبتى « ذات اللثام » ... تحية عاطفية ختمتها بقولها :

« ما أعجبه قدَرا ذلك الذى جمع بيننا ، وهيأ لنا فرصة اللقيا فى طريق الحياة على هذا النحو ... وها نحن أولاء نلتقى دون أن يرى أحدنا صاحبه ، ولكن أى جدوى لرأى العين ؟ ألا تحس

أننا نتراءى ونتناجى على وضح أصدق وأعمق من وقوع بصر على بصر ، ومن حديث فم إلى فم ؟ ... ثق أنى لك صديقة وفية ، يملأ إعجابى بك أقطار نفسى جميعا ... »

طويت الرسالة ، وأنا أهمهم :

أصديقة هى فقط ؟ ... إنها لتعلو على مراتب الصداقة والألفة ، وما فى معجماتنا من كلمات دنيوية تقاس بها الاعتبارات ...

ليس ثمة من كلمة تكشف معنى تلك الصلة الرفيعة التى تربط بينى وبينها ! ...

سيدتى :

إنى لأعرض لك اليوم فى كتابى هذا تلك المشاهد السحيقة من ماضىّ القصىّ ... فأذنى لى أن أسألك الساعة :

ماذا كان موقفك أنت من تلك الأحداث ؟ ...

أتذكرين تلك الشويعات ، التى كنت أشاركك فيها الحياة والنجوى ؟ ...

أتذكرين زوراتك لى ، أو بالحرى : إلمام طيفك بى ، أو على وجه أصح : تخايل وجهك خلف اللثام ، يبعث إلىّ من ومض عينيك سنا يضىء لى ظلماء الحياة ، ويوقظ أوصالى مما يستبد

بها من سبات وخمول ؟ . . .

لقد سايرتني شوطا ليس بالقصير ؛ فهل كنت على بينة مما كان ينتابني من تأثر وتطور وانسياق ؟ ... وهل ظللت على مرقبة من خطاى فى هذه السبيل ؟ . . .

وذلك التراخى الذى جد فيما كان بينى وبينك من علاقة ،وهذا الافتراق الذى كان من أثره أن انقطع ما كان بينى وبينك من تراسل ، هل توضح لك من أسباب هذا وذلك شيء ؟ . . .

أما أنا فما أجهلنى بتلك الأسباب ، وما أعجزنى عن إدراك كنهها ! . . .

لقد تراخى عنى ذلك العهد ، فلم أعد أذكر دقائق تلك المغامرة الحافلة التى كنت أنت دعامها المتين ! . . .

أنسى ولا أنسى معالم بارزة الأثر فى تلك المغامرة ... ومن أين لى نسيان أنى أحببتك يا سيدتى ؟ . . .

لزام أن أسوق إليك هـذا الاعتراف اليوم ، فى غير مساترة ولا جحود . . .

لقد أحببتك حبا غريبا ، تشعب فى أنحاء الضلوع ، فكنت مشوقا غاية الشوق إلى أن أراك ، أقصد أن أرى وجهك المتخفى خلف لثامه . . .

ولكن أى حب هذا ؟ . . .

أطيف أحبه ؟ . . .

أخيال أتعشقه ؟ . . .

أحلم أتوله به ؟ . . .

لم أكن لألقى بالا إلى شىء من هذا كله ، فأنا فى شغل بما يتنظمنى من غبطة وانشراح . وكان مما يزيدنى اغتباطا وازدهاء أنى أحس مبادلتك إياى هذا الشعور ، وإن لم تصارحينى به جهرة ! ...

إنه لمن العجب العجاب ياسيدتى ، أننا كلينا بقينا لا يظفر أحدنا بأكثر من ذلك التواصل الروحى ، ولا يسعى فى دنيا الحقائق إلى تعارف وتلاق ! . . .

قنع كلانا بذلك البريد الذى لم يكن يتعدى المناجاة ، وبذلك اللقاء الذى لم يكن إلا تجلى طيف ! . . .

ولا أكتم عنك ماهجس بخاطرى ذات يوم ، إذ رحت أسائل نفسى :

لم لا أطلب لقاءك ؟ . . .

لم أحرم نفسى رؤية من أحب ، سافرة قد انحسر عن محياها اللثام ؟ .

لم لا أراك كما أنت ، فأتعرف شارتك ، وأتبين قسماتك ؟ . .

: لا أراك حقيقة ماثلة تنبض بالحياة ، لا خيالا مغلفا وراء ستار ؟ ...

وما كادت هذه الخواطر تعتلج فى رأسى ، حتى احسست انتفاضة خشية وتهيّب ، لا أعرف لها مأتى !

مِمّ خوفى ؟ ...

وفيم خشيتى ؟ ...

وبنيت عزمى على ألا آذن لهذه الخواطر فى أن تساورنى كرة أخرى ...

حسبى هذا التوفيق ، الذى أتفيأ متعته ، ولأتجنب ذلك المجهول الذى لا أدرى ماذا يخبؤه لى من طوارىء الشكوك والرِّيَب ! ...

سيدتى :

إنى باسط لك الآن ، من أحداث حياتى ، أطرافا شتى ، وسواء علىّ أكنت بها عليمة ، أم كنت لا علم لك بها من قبل ؟ . .

هى قوة تستفزنى أن أكشف لك عن طوايا تلك الحقبة العجيبة من ماضىّ ...

منذ زاولت عملى فى مجلة «النجم» ودرّ علىّ الرزق والكسب ، شرعت أحيا حياة غير التى كنت أحياها ، واستطعت أن ألمّ من شعثى ، وأرتب عيشى . فأصبحت فى زيّى وفى مأكلى ومشربى ،

على نحو جديد ...

وجدير بمن يحب حسناء رفيعة الشأن ، أن يكون ذا رونق ورُواء ! ...

ووجدتنى أحفل بالزهر أنتقيه ، وأعد له الأصص ... وكنت كلما وقفت أجتلى الزهر تتفتح أكامه ، أرانى بك موصول الفكر ! .

ودام تواصلنا على ذلك الوضع المعروف : قصائد أنشرها فى المجلة ، وردود منك تصل إلىّ فى البريد ، وهاتيك الزورات اللطاف يوافينى بها طيفك بين آن وآن ! ...

وترادفت الأيام ، وأنا فى بحبوحة هذه السعادة ، وازداد فى العمل نشاطى ، ورأى أستاذى أن يكل إلى فى المجلة جساما من المهمات ، فاضطلعت بها على خير وجه ! ...

وزيد أجرى ، وانتقلت إلى مسكن آخر أرق وأكمل معدات ... وكانت فيه شرفة لم تلبث أن حليت بالرياحين ، حتى غدت روضة صغيرة ، تضوّعت ريّاها . فكنت أتخذ مجلسى عندها ، أنشد شعرى محييا فتنتك ونضرتك التى تمثلها نضرة هذه الأزاهير !

وعلى مر الأيام ، تكاثر عملى فى المجلة وتشعبك ، ووجدتنى أخيرا مسئولا عن شئون الإدارة مشرفا على تدبير المطبعة التى اشتراها أستاذى ، ليطبع فيها مجلته ، وليجعل منها موردا لكسب

جديد ، فاستغرق العمل فى المطبعة أكثر وقتى ، إذ انهالت علينا المجلات والكتب والأوراق التجارية ، حتى صار طبع مجلة أستاذى جزءاً قليلا ، بالقياس إلى غيرها من المطبوعات ! ...

واستشعرتُ لذة فى متابعة العمل وإحكامه ، وبذلت قصارى الجهد فى خدمة أستاذى ، حتى غدوت ساعده الأيمن ، ومضيت فيما بين يدىّ ، أستمرىء النجاح والكسب ، فجددت من وسائل عيشى ، وبدلت من نظام حياتى ...

وتعاقبت الأيام شهوراً ، وأنا فى لجة العمل ...

فهل ظل تواصلنا على ما كان عليه ؟ ...

حقيق بى أن أعترف لك بأن ذلك التواصـــل قد اعتراه تطور ... لم يتبدل جوهر العاطفة التى أكنها لك ، ولكنها اتخذت مظهراً جديداً قوامه الهدوء والاعتدال ! ...

كنا نتراسل ، ولكن فى فترات ليست بذات قرب ، كما كان الأمر من قبل ! ...

وأصارحك بأنى أجلت مناجاتك بقصيدى مرة بعد مرة ، مدفوعة إلى ذلك بزحمة العمل ومواصلة المجهود ! ...

ثمة تحول لاريب فيه ، اعترى مابيننا من صلة وعاطفة ! ...

لم يعد قصيدى يتنفس تلك الأنفاس المضرمة . ولم تعد رسائلك تحلق

فى تلك المطارح القصوى من آفاق الخيال ! . . .

كانت عاطفتنا تتجه رزينة الخطا إلى العقل والمنطق ، ومن عجب أن تجرى كلانا هذا المجرى دون أن ينكر على صاحبه شيئا من أمره ؛ كأنما هو تحول طبيعى ، لا محيص عنه لنا كلينا ! . . .

وحدث أن ساوم بعض الناس أستاذى فى مجلته ، فابتاعها منه ، وأصبحت صوتا لحزب سياسى ، فاضطرنى ذلك أن أتخلى عنها . . . وتباعدت الفترات بين تراسلنا معا ، وتسارعت بنا الخطا نحو العقل والمنطق والاتزان . . .

وألفيتنى فى المطبعة أنهض بكل شىء . . . وأجزل أستاذى لى الأجر ، ووثق بى أعظم الوثوق ، وقويت تبعاتى فى العمل ؛ فقدرتها خير تقدير ، وتلهب نشاطى ، وازداد دخلى ، وارتفعت بى الحال درجات فوق درجات . . .

وكنت ما زلت معنيًّا فى شرفة مسكنى بتلك الأصص المزهرة ولكنى لا أنكر أنى كثيرا ما أجلتنى مواعيد الأعمال فى المطبعة ، عن سقيا هذه الروضة الصغيرة وتعهدها ، وكثيرا ما ألهيت عن الاستمتاع بتلك الجلسات التى كنت أقضيها فى صحبة الأزاهير . . . فسرعان ما أخذت تضمحل ويدبّ إليها الذبول والتصويح ! . . .

ولم أكن قد بارحت « القاهرة » خلال تلك المدة التى سلخت فيها عامين اثنين ! ...

وهبت ريح الصيف وشد أستاذى رحاله إلى « رأس البر » مع أسرته : إذ استأجر عشا يمضى فيه شهرا وبعض شهر ...

ومكثت أنا فى « القاهرة » يستأثر بى العمل ! ...

ويوما تلقيت دعوة من أستاذى أن أوافيه فى « رأس البر » أقضى هنالك معه بضعة أيام للترويح والاستجمام ... فابتهجت بهذه الدعوة ، وسارعت إلى تلبيتها ، وما هى إلا أن حزمت الحقيبة ، وحثثت الخطو ، وحللت مثابة أستاذى فى ذلك المصيف ! ...

وبدأت أستمرى حياة طيبة ، فى صحبة تلك الأسرة الكريمة التى تتألف من أستاذى وزوجه وابنتهما ، فى زهرة العمر ...

ومر أسبوعان ، وأنا هانىء بتلك الصحبة ، قلما نفترق ، نتحلق حول مائدة الطعام ، ونخرج رفقة للنزهة على الشاطىء ، ونسمر جميعا هزيعا من الليل ...

وكنت أحس فى معاملة هذه الأسرة لى روحا من العطف والحنو ؛ كأنى ابن بار لهذين الأبوين الشفيقين ، وأخ عطوف لتلك الأخت المهذبة الشمائل ! ...

وظللت أعد نفسى ذلك الأخ العطوف لها ، أرعاها رعاية

الإخاء المحض، ولكن عاطفة الأخوة لم تلبث أن نمت وترعرعت، حتى تبدلت خلقا آخر ! ...

كان أول لقاء بيننا يوم هبطت العش لقاء تمجيد وإكبار، ثم استحال اللقاء بيننا تعاطفا وألفة، ثم تسامى ذلك التعاطف وتلك الألفة إلى شعور أرق وأرهف . . .

وطالما أطلق لنا الايوان السبيل، ننعم بجلسات خالية صافية ... أفكان ذلك منهما وليد عمد وقصد ؟ . . . أم الملابسات هى التى هيأت لنا تلك الخلوات ؟ . . .

وعلى أية حال، فقد خلوت إليها، وخلت إلىّ . وتعرفت فيها سماحة نفس، ودماثة طبع، ونقـــاء روح، إلى خفر وحياء أصيلين ...

وكان انظراتهـا إلىّ تعبير صامت عميق الأثر، فكثيرا ما أشعرتنى أنها معنية بى، آنسة إلىّ ! . . .

ومن العجيب أننى حين كنت أنفرد فى مضجعى، ويرنّق فى عينى الوسن، ألمح طيفك ـ ياسيدتى ـ يتراءى لى وأنت على حالك دائما يحجبك اللثام، ولكن هذا اللثام كانت ترق غلائله فيشف عما تحته من ملامح وقسمات . . .

وما أعجب ما كنت أرى ! . . .

كنت أشهد في وجهك سمات من تلك الصديقة الجديدة بذت تستلفتنى . لون عينيها العسلى ، إشراق ابتسامها الحلو ، نضارة بشرتها البضة ، تلك الغدائر التى كانت تنساب على منكبيها فاحمة موّاجة !...

ما أعجبه حدثاً لا أملك له من تعليل !

كنت أنت دائماً تتراءين لى فى صورة صديقتى الجديدة . . .

وقد رمى ذلك بى فى حيرة معضّة . . .

أ كنت بهذا الصنيع تسخرين منى ؟

أم كنت تلوميننى ، على ما كان منى نحو هذه الصديقة ، من عطف وتودد ؟ ...

وإنى على الرغم من هذه الملامح الجديدة التى كنت ألحظها فى طيفك ، لم أكن أعتقد فى دخيلة نفسى إلا أنك أنت أنت ، روح واحدة ، وإن تغيرت الملامح ، وتبدلت القسمات ! . . .

ولكن أية ملامح أعنى ؟ . . .

لم أكن فيما سلف من أيامى أجتلى لك ملامح أو قسمات تعين على التمييز والإيضاح ، فقد كنت دائمـــا فى خفية وراء حجاب الضباب . . . أفكنت آنئذ على صورة واحدة لا تتغير ولا تتبدل ، أم كانت صورك تتغير وتتبدل خلف لثامك ، حتى انكشفت لى فى تلك الصورة الأخيرة التى أشبهت فيها صديقة المصيف ؟ . . .

سيدتى :

إن الحيرة تغتالنى، فلم آثرت ألا تُسفرى لى عن محياك فى وضح النهار ، وتكشفى لى عن حقيقة شخصك ، وتحدثينى فى شأنك ؟ ... لم ألقيت بى فى متاهات الظن والتخمين ، يلتبس علىّ فيها الماء بالسراب ؟ . . . مهما يكن من أمر فقد أحسست فى تلك الفترة أن عاطفتى تتجدد لك ، وتتخذ لها هدفاً ومرمى . . .

إن حبى ليزدهر ، ولكأن الفترة التى حسبتها فترة تعقل واتزان لم تكن إلا فترة استجمام وتأهب للوثبة القصوى ...

فقلت إلى « القاهرة » ، وبين الضلوع نار وارية ، واستأنفت فى المطبعة عملى أنهض به فى حماسة ونشاط ، أحرص ما أكون على مرضاة أستاذى ، وولى نعمتى ! ...

وإنى واثق أن تراسلنا قد انقطع هذه الفترة ، ولكننى كنت دائب التفكير فيك ، وكثيرا ما كنت تزورينى طيفا كشأنك ، ولكنه طيف تتجلى فيه ملامح صديقتى فى عش المصيف ! . . .

وأقبلتُ على روضة الشرفة أرعى أزاهيرها ، وأجلسُ إليها أناجى حبى الذى تتضرم ناره بين جنبى ! . . .

ولكن أى حب هذا على وجه الدقة والتحقيق ؟ . . .

أحبى إياك أنت يا ذات اللثام ؟ أم حبى لصديقتى الجديدة ؟

حسبي أني كنت أناجي من يخفق لها قلبي ، وأنشد من تحنّ إلى لقائها نفسي ! . . .

كنتُ فيما سلف قنوعا بذلك التواصل الروحي ، يملأ سمعي نغما ، ويبهر عيني ضوءا ، ولكني لا أتبين له شخصا ...

أما اليوم فما أنا بقانع ولا مكتف بذلك العبق ، تهبّ علىّ أنسامه من بعيد . . .

ما أشوقني الساعة إلى لذة الاقتطاف ، ومتعة الاعتصار ! ....

ياطالما تمنيتك فى تلك الحقبة جسدا يحتويه ذراعاى ، أستنشى منه عطر المرأة ، لا عطر الزهرة ، وأسمع منه صوت الإنسان ، لا لحن الأحــــلام ! . . .

ياطالما تشهيت أن تبسطى إلى كفك فى تلك الزورات الأخيرة ، كفك الرخصة البضة ، أبقيها بين راحتى تبث فىّ الحرارة والانتعاش ، وأغتنم منها قبلة حافلة أروى بها ظمأ الشفـاه ، كتلك القبلة التى اغتنمتها منك ليلة الوداع لعش المصيف . . .

أذاكرة أنت ؟ . . .

كنا على الشاطىء نتنزه ، والليل ساج ، والنسيم خفاق ، وبيننا حديث وشجون . . . وأيقنا أخيرا أن التحدث لغو ، فقطعناه بالصمت ، وأغنتنا لغة العيون نتناجى بها فترة ، وإذا أنا آخــذ

بيدك ألا طفها، وأردعها قبلة عميقة حرى ! . . .

لقد عاد أستاذى من مصيفه فى «رأس البر»، وشعرت به يغدق عطفه على، عطف الأب على ابنه الأعز، ورأيته يكاشفنى بالدقائق من أحواله وأسراره. وكثيرا مادعانى إلى تناول الغداء أو العشاء فى بيته بين أسرته، فلبيت الدعوة توَّاقا سباقا، مثلوج الفؤاد.

وأكبر يقينى أننا لم نستأنف تراسلنا، وما حاجتنا إلى الرسائل، وقد تلاقينا بعد طول تجوال ؟ . . .

لا مرية أن حبيبين تلاقيا، ولكن ألقيت فتاة . أخرى غيرك هى «فتاة المصيف» ؟ أم لقيتك أنت «ذات اللثام» ؟ . . .

لقد ربط الزواج بينى وبنت أستاذى «فتاة المصيف»، وعشت معها الأعوام الطوال، حتى قضت منذ عهد قريب . . .

وأعجب ما كان منى أنى كنت كلما هممت أن أستوضح منها شيئا يكشف لى ذلك السر الغامض، سر العلاقة بين «فتاة المصيف» و «ذات اللثام»، وجدت كلماتى قد استحالت بسمات هادئة، تستجيب لها صاحبتى بالابتسام . . . فهل كنا نتكاشف بتلك البسمات الخفيفة الغامضة، ونستجلى دقائق القلوب ؟ . . .

سيدتى :

إليك قصتى، رويتها لك جلية صادقة، رويتها لك يا «ذات

التئام » : لكى أقتبس منك نورا يكشف لى ظلماء الحيرة و الظن والإبهام . . .

ولا إخالك مجيبتى إلا بقولك :

« دع عنك كل شىء ، وحسبك ما بلغته فى حياتك من مآرب ، فقد خرجت من حال إلى حال ، وبدلت بالبؤس نعمى ، وبالشقاء هناءة ، وبالخمول همة ومضاء ، فماذا أنت مريد فوق ما بلغت ؟ . . . فلا عليك أن يكون ما سلف من أحداث مغامرتك وهما أو حقيقة ، فليس الوهم أهون أثرا من الحقائق ، فى توجيه العزائم ، وتقرير المصاير ، و إصابة الأهداف . . .

إن لم يكن لك يا سيدتى من جواب غير هذا الجواب ، فإنه عندى فصل الخطاب . . . وعليك سلام ! . . .

الشيطان يلهو!...

زعموا أن شيخ الشياطين لما حضرته الوفاة ، استدعى ولى عهده « بلزعبول » ، فلما قدم عليه ألفاه على فراشه المصنوع من الحسك ، فجثا على قدميه ، وأطرق حزينا ، وأحس شيخ الشياطين حضور خليفته ، فرفع رأسه فى جهد وقال :

أصغ إلى يابنى ! . . . لقد تأشرت آلاف السنين على مملكتى ، فلم آل جهدا فى العمل . وفق قوانيننا الحكيمة ، ولم أقصر لحظة فى خدمة مبادئنا ، ونشرها نشرا موفقا ، فى أرجاء العالم .

فقال « بلزعبول » ، فى إخلاص وحرارة ، وهو على حاله ، خافض الرأس :

هذا حق يامولاى ! . . .

وتابع شيخ الشياطين قوله وهو يتنهد :

ولكنى يابنى — بالرغم من كل هذا — أجدنى غير راض عما فعلته . .

فرفع « بلزعبول » الشاب رأسه المسنون ، وحدق فى وجه الزعيم المحتضر ، والدهشة تتنازعه ، وقال :

مولاى ! . . . لم يسبقك فى الحكم زعيم أتى ما أتيتـه . . . إن مملكتنا — بفضل عزمك — قد نالت من الشهرة المدوّية والسؤدد والرفعة ؛ مالم تنله فى أى عهد آخر من عهودها السابقة ! . . .

وتقلب شيخ الشياطين على فراشه ، فظهر من تحت الغطاء حافراه المشققان ، وقال فى صوت أبح :

هذا حق ، من حيث قيامى بالواجب ، نحو عشيرتنا ومبادئنا ، ولكنى أقصد واجبى نحو نفسى . . .

فاهتز « بلزعبول » وقال :

أفصح يا مولاى ! . . .

فاستطالت عينا الزعيم ، وارتفعتا حتى قاربتا قرنيه ، وقال :

إن قيامى بإغواء الآدميين ، والتغرير بهم — كما هو مفروض فى دستورنا الأعظم — أمر هين ميسور ! . . . وقد ساعدنى على إنجازه ما انطوت عليه سريرة الإنسان ، من حسن استعداد لقبول بذرة الفساد ... ، فماذا فعلت لأنال كل هذا الفخر ؟! . . .

— مولاى ! . . .

— اسمع يا « بلزعبول » . . . لو لم نجد من الإنسان نفسه كما صورته بيئته عونا لنا على نشر غوايتنا ، لما استطعنا أن نفعل شيئا . . .

— سيدى الزعيم ! . . .

— اعترف معى ولا تكابر ! . . . ماذا ترك لنا الآدميون من شر ؟ . . . لقد تغالوا يابنى فى مقدرتنا على إفساد العالم ، ونحن اثنان لا ثالث معنا ، فلنتكلم فى صراحة ، ولنعرض أعمالنـــا مع البشر . . . ماذا تقول فى هذه الآثام والشرور التى تموج بها النفس البشرية ، أهى كلها منا ؟ . . . تكلم ! . . .

— كلا أيها الزعيم ! . . .

— إن الإنسان ليفعل الشر مطمئنا ، ثم لا يلبث أن ينحى علينا باللائمة ، فينفض عنه التبعة ، ويحملنا الوزر كله . . هذه هى الحقيقة التزمت أن أجاهرك بها ، لتجلو الغشاوة عن عينيك . . .

وضعف صوت الزعيم وغار شدقاه ، وأخذت لحيته الزرقاء ترتعد على صدره . فبادر «بلزعبول» الشاب ، وتناول قارورة يندلع منها لهيب قان ، وأفرغ ما فيها فى فم الشيخ ، فسرعان ما اختلجت حدقتا عينيه ، وانتفخ وريداه ، ثم سمع يقول :

شكرا يابنى . . . فإنى أرغب فى إتمام حديثى إليك . . .

— إننى مصغ لك أيها الزعيم . . .

— سيئول إليك يا «بلزعبول» بعد حين ، أمر هذه المملكة

الضخمة ، فماذا أعددت لها من مناهج وأساليب ؟ . . . لا تقل إنك ستتأثر خطاى . . . لقد أوضحت لك أنى لم أفعل شيئا جديرا بالفخر ! . . .

— وماذا تريدنى أن أفعل ؟ . . .

— افتح فتحا جديدا ، وشُق أفقا بكرا ! . . .

— مولاى ؟ ! . . .

— إيت بمعجزة ، تثبت لهم أننا أهل لغير الشر ! . . .

وهنا بدأ جثمان الزعيم يحترق رويدا رويدا ، وينبعث منه دخان أزرق ، فسجد « بلزعبول » فى خشوع ، والدخان حوله يتعالى ويتكاثف ، حتى أصبح المكان معتما كقاع الجحيم . . . وما لبث أن سمع انفجار قوى ، فرفع « بلزعبول » رأسه فوجد جثة الشيخ قد اختفت ، ولم يبق منها أثر . . . هنا صاح صيحة عالية ، ينادى الخلصاء والأتباع .

وأقبلت الشياطين أفواجا تتزاحم على القاعة ، وقرونها المسنونة تتوهج ، أذنابها الطويلة تضرب الأرض ضربا متواصلا . . .

واعتلى الزعيم الشاب منصة الخطابة ، ثم صاح : سكوتا ! ...

فهدأت الأذناب وانكمشت ، واستلانت القرون وتدلت ، وقد خبا وهجها ، وخشعت الأصوات ، وأرهفت الآذان ! . . .

وتكلم « بلزعبول » وقد نبتت فى لحظة على وجهه الأمرد لحية الزعامة ، وقال :

يا معشر الشياطين الكرام !... إننى أحمل لكم تحية زعيمنا الأكبر ، ووداعه الأخير !...

فاهتزت القاعة على الفور بتنهدات ملتهبة ، وتابع «بلزعبول» قوله : إنه حتى الساعة الأخيرة كان يفكر فى خيركم ، وحسن سمعتكم ، وقد أودع صدرى وصية خطيرة ، ألزمت نفسى تنفيذها على ضخامتها ، وعظم شأنها ... وسأجد منكم أيها الرفاق خير عون وظهير !...

وتقدم « الأرقط » عميد المستشارين ، وقال :

وهل لمولاى الزعيم أن يعرض ، على حصانه وأنصاره ، هذه الوصية الكبرى ؟...

— إنها تتلخص فى كلمتين ، ألقى بهما إلى زعيمنا الراحل ، قال : « افتح فتحا جديدا ، وشق أفقا بكرا ، وأت «للناس» بمعجزة تثبت لهم أننا أهل لغير الشر » !...

فاندلع اللهيب من عيون الشياطين ألسنة طويـــلة ، وعلت همهمة تساؤل وتعجّب ، ودنا « الأرقط » من الزعيم ، وقد رفع هامته ، وقال :

ثمة حيدة عن سبيل السلف الطيب الذكر ؟ ...

فتناول « بلزعبول » سوطا ناريا معلقا فى الفضاء ، وشهره فى وجه « الأرقط » ، وهو يقول :

أثمة معارضة لباكورة أحكامى ؟ ...

فخر عميد المستشارين خاشعا يستغفر ، وقال « بلزعبول » :

إنى أعرف صوالحكم أكثر مما تعرفونها ، وسأعمل على تنفيذ وصية مولاى الأكبر ، فى صدق وإخلاص ... تفرقوا ...

* * *

واحتبس « بلزعبول » فى قاع الجب الأسود وقتا طويلا ، وقد أمر ألا يقلقوه ، وأخذ يفكر فى وصية الزعيم ، وكيف يستطيع أن يشق فى حكمه أفقا بكرا ، ويأتى « للناس » بمعجزة ، تثبت أن « الشيطان » قادر على عمل شىء غير الشر . وجعل يقلب الأمور على شتى الوجوه ، ويباحث نفسه ويجادلها ، والأمل دائما يداعب قلبه . إنه لو وفق فى مسعاه لأضاء اسمه فى مملكة النار أبد الآبدين ! ...

والتمعت عيناه بغتة ورقص قرناه وتعانقا ، ثم انطلق فى لمحة البرق الخاطف ، يشق حجب الظلام واللهب حتى دخل قاعته فى دار الزعامـــة ، وصاح ينادى الخلصاء والأتباع ، فانفلق السقف ، وتصدعت الجدران ، وانشق أديم القاعة ، وتباعثت الشياطين منها

ملبية النداء ! . . . واعتلى « بلزعبول » المنصة ، ووجهه محوط بهالة أرجوانية ، مبرقشة بنقط زاهية ، وقال :

يا معشر الشياطين الكرام ! . . . لقد اهتديت إلى فكرة أنفذ بها وصية زعيمنا الراحل ، على خير وجه . . . إنها ستبلغنى وإياكم طريق المجد الأبدى ! . . .

وتقدم « الأرقط » ، عميد المستشارين ، يبتسم فى تلطف ، وهو يفرك يديه ، وقال :

هل لمولاى أن يشرح لنا فكرته ؟ . . .

— ستعرفونها فى إبانها . والآن أخبركم بأنى فى حاجة إلى فئة من ذكوركم ، وأخرى من إناثكم ، يرحلون معى إلى الأرض ! . . .

— إلى الأرض ! . . .

— أجل يا « أرقط » إلى الأرض . . . حيث أقوم بتجربتى العظيمة ، معجزتى الطريفة التى سيهتز لها الثقلان . . .

وصاح « بلزعبول » مناديا :

يا « زفاف » ! . . . يا « سرعرع » ! . . . يا « عتريس » ! . . . يا « خلوب » ! . . . يا « ياساية » ! . . .

ولبث ينادى من وقع عليه اختياره ، فاجتمع أمامه جمع من الشياطين ، بين ذكور وإناث ؛ شبان وشيب . . .

وما إن استتم عددهم ، حتى صاح بهم :

اتبعونى ! . . .

ونشر الزعيم جناحيه ، وانطلق شاقا سقف القاعة ، وأتباعه الذين اختارهم فى أثره ، يرفون بأجنحتهم ، فيسمع لها أزيز مخيف.

وفى لحظة كان الزعيم وخلصاؤه على الأرض ، فى بقعة يقال لها «الوادى الأجدب» ، وهى بقعة منسية لا يرتادها البشر لوعورة أرضها ، وندرة الخيرات فيها ، حتى الوحش لم يكن يقربها ! . . .

وأخذ « بلزعبول » على الفور ينفذ خطته ، فطار على البقعة يحدها ويرسم معالم المكان الذى يريد إنشاءه فيها . ولم تنقص لحظات ، حتى انقلب ذلك « الوادى الأجدب » بحيرة هادئة صافية الماء ، يتوسطها قصر من البلور ، مقام على عمد من المرمر ، محوط ببستان ظليل فواح ، وقد ضرب حول هذا القصر وبستانه نطاق من سحب مسحورة ، لم تدع له وجودا أمام أعين البشر ! . . .

وحط « بلزعبول » على شاطىء البحيرة ، حيث ينتظره أعوانه مدهوشين ، وقال :

يا « خلوب » ! . . .

فتقدمت منه شيطانة حيزبون معمرة ، لها أنياب زرق مهشمة ، تلتحف بعباءتها الدكناء المرقعة ، وتحتذى خفها القانى الممزق ، فقال لها :

لقد نصبتها رئيسة لهذا القصر ، فسكينة من توابعك الإناث ! . . .

ثم أخذ يتفحصها برهة ، وبرقت على وجهه ابتسامة سانحة ، وقال :

« لكن يا « خلوب » ، ليست هذه الطلعة وهذه الملابس خليقة بمن اخترتها مربّية « لفضلى العذارى » ! . . .

فهمهمت : « فُضْلَى » العذارى » ؟ !

— نعم « فضلى العذارى » صنيعتى ، معجزة العصر ! . .

فتهامست الشياطين فيما بينها ، وسكت « بلزعبول » وقتا ، وعيناه تتوقدان ، ثم نادى :

يا « زَفَّاف » ! . . .

فظهر شيطان ممشوق القد ، بوجه أمرد مستطيل ، فقال له « بلزعبول » :

أما أنت ، فقد أقمتك زعيما على الذكور من إخوانك ، وسيكون مقركم ضفاف البحيرة تحرسونها ، وتمنعون عنها الطارقين من بنى البشر ! . . . لا يقرب القصر إنسان ! . . .

— أمرك مطاع يا مولاى !

وعقد « بلزعبول » يديه على صدره ، وقال « لزفّاف » :

لا أنسى يا «زقاف» ما قمت به من عمل مجيد يوم أرسلك زعيما الراحل إلى الأرض على رأس بعثة الخزيين ! ...

فانحنى «زقاف» فى رشاقة ، وقال :

مولاى ! ...

فأحدّ «بلزعبول» بصره فى الشيطان ، وقال :

ولكنى لا أنسى كذلك ، وقد تكلل مسعاك بالنجاح فى سبيل نشر الخمر بين البشر ، أنك عدت إلينا بقنينة من الشراب تخفيها تحت جناحيك ! ...

فرفع «زقاف» رأسه ، وقال فى حرارة :

لقد كانت توبتى صادقة أمام الزعيم الراحل ، وحق أنفاسه الزكية !

— إذن يمكننى الاعتماد عليك ... والآن فليأخذ كل منكم مكانه فى هذه البقعة ، ولينتظرنى ! . . .

وبسط زعيم الشياطين جناحيه ، واختفى فى لمحة البصر ، وعاد بعد برهة يخفى تحت شملته شيئا ملفوفا ، يردد الأنفاس ، فذهب به إلى القصر البلورى العالى ، وألقى به بين يدى «خلوب» ؛ وقال لها :

لقد أتيتك «بفضلى العذارى» ! ...

— أإنسية هى يامولاى ؟!

— نعم يا «خلوب» . . . أخذتها وقت مولدها من كوخ

أسرتها . . . إنها تنتمي إلى طائفة الرعاة ! . . .

— وتريد أن تجعل منها « فُضلى العذارى » ؟! ...

— لست أريدها « فضلى العذارى » فحسب ، بل أسمى مخلوق من البشر . ستنشأ في هذا القصر ، وفق برنامج دقيق أعددته لها .. ستقومين أنت ورفاقك بتنفيذه . . . إنها وديعتي بين أيديكم ، ولن أعود لرؤيتها إلا حين ينضر شبابها ، ويكمل نضج روحها ، ولكنني سأشرف عليها عن بُعد ، سأكون رقيبا عليكم جميعا ؛ فإياكم والإهمال فيما أردتكم عليه ! ..

فابتسمت « خلوب » وكانت قد اتخذت لها هيئة مربية ، يترقرق ماء البشر والطهر في وجهها الوسيم ، ثم قالت :

كن مطمئنا يا مولاي ، سنعمل على تنفيذ أوامرك ! ...

ثم ابتسمت مرة أخرى ، وقد كشفت عن وجه الوليدة تتأملها ، فإذا هي سابحة في نوم هادىء ، فقالت :

وإذا وُفقت في إرضائك ؟ ...

— سأقطعكِ الصحراوات السود ، وسأسخر لكِ زوابعها الهُوج ! ...

فانحنت « خلوب » حتى قارب رأسها حافرى الزعيم ، وكلمات الشكر تتناثر بين شفتيها ، ثم رفعت بصرها إليه ، وقالت وهي

ما زالت محتضنة الطفلة :

إنى مصغية لأوامر الزعيم ! . . .

— سأبعث إليك برنامجى مفصلا . أما الآن فحسبى أن أقول لك : ستكون ربيبتى « فضلى العذارى » مثلا كاملا لأحسن مخلوق ! . . .

لحنت المربية هامتها برهة مفكرة ، ثم قالت :

ليس ثمة إلا طريق واحد ، علينا انتهاجه ! . . .

فقهقه « بلزعبول » وقال :

أى طريق تزعمين ؟ . . .

— أن نباعد بينها وبين ما يسمونه الشر والألم ، كما هما معروفان لدى الآدميين ! . . .

فربت « بلزعبول » كتفها بأصابعه العاجية ، وقال :

عوفيت يا « تحلوب » ! .. إنى فخور بك وبذكائك ! ...

ثم اعتدل فى وقفته ، ونادى « زفانا » فلما مثل بين يديه . قال له فى حزم :

لا يقترب من هذه المنطقة بنو البشر . وخصوصا الذكور منهم ... أوعيت كلامى ؟ ...

— كن مطمئنا أيها الزعيم ! ...

ومرت الأعوام ، وكانت التقارير ترفع كل يوم إلى زعيم الشاطئين « بلزعبول » حافلة بأخبار ربيبته ، فكان يبسطها أمامه مغتبطاً ، ويقول لرئيس مستشاريه ، الجالس على عتبة العرش :

ماذا تقول فى تجربتى هذه يا « أرقط » ؟ ! ...

— خلق إنسانة لا تعرف الشر ولا الألم ، تحيا فى هناءة دائمة وطهر أصيل ! . . . حقاً ستكون معجزة الدهور ! . . .

— ومن ثم يمكننى أن أنشىء على غرارها عالماً نموذجيا ، لم تحلم بوجوده البشرية ! . . .

وانطلق يضحك فى نشوة ضحكا رددته جوانب البهو صخبا كصخب العواطف الثائرة ! ...

* * *

أما هناك فى القصر البلورى المحوط بالبستان الفواح ، المقام وسط البحيرة على أعمدة من مرمر ؛ فقد نشأت « أزاهير » ، ربيبة الزعيم ، نشأة لم يعرفها البشر . . . حياتها ربيع دائم ، وطريق عهد ميسور ! . . . وبيئتها جو رائق صاف ، لا أثر فيه للغمام ؛ فخايل الغبطة لا تنحرف لحظة عن وجهها ، والألم لم يعرف مرة وقعه فى نفسها . . . وكانت ترُى إما غارقة بين وسائدها اللينه ، وسط البستان ؛ تصغى إلى موسيقى خفية ، ثم تسائل « أزاهير » نفسها لحظة

سن ّكنهيا ومصدرها !... وإما مشمولة بوصيفاتها الجيلات في البهو العاجي ، يسامرنها بحديثهن المألوف ، يسرن فيه على خطط مرسومة في حدود معينة !... وإما مع مربيتها « خلوب » في القاعة الزمُرّدية تصغى إلى درس الحكمة ، وآداب السلوك ، وأصول الاجتماع ؛ وفق البرنامج الذى استنبطه « بلزعبول » !...

فإذا ما أقبل سلطان الكرى ، يداعب فى وداعة جفنيها ، شعرت بأيد خفاف ، تحملها إلى مخدعها الوثير ؛ حيث تستقبل أحلامها المتشابهة !...

أما على ضفاف البحيرة ، فقد نشط « زفاف » وأعوانه للحراسة ؛ فلم يدعوا أى مخلوق ـ إنسانا أو حيوانا ـ يدنو منهـــا . واقتنع « الإنسان » بعد محاولات خائبة أن هذا المكان أصبح منطقة حراما ممنوعة عليه ؛ فكم من مرة جاءت جماعات الصيادين تطلب رزقها فى هذه البحيرة العجيبة ، التى لم يكن لها وجود من قبل ، فما إن قاربتها حتى قامت فى وجهها الأعاصير العاتية تصدها وتشتتها !... ولن ينسى الفرسان أنهم كلما جاءوا يرغبون فى ارتياد شواطئها ، فيقضون بها أياما فى لهو ومؤانسة ـ لاقوا من الشر والعناء ما لم يكن فى حسبان ؛ إذ خرجت لهم من الماء طوائف من حيوانات مجهولة ، لم تقع عين إنسان على مثيلاتها بشاعة وقسوة ، وراحت تضرب فيهم بقرونها

الحداد ، وتطيل عذابهم بما تلقيه عليهم من محنة ولهيب .. وكذلك ظل أمر هذا القصر وساكنيه سراً خفياً مدفوناً في قلب هذا الوادي القصي .

وانقطع « الناس » عن ارتياد البقعة ، ولكن عقولهم لم تنقطع عن الكشف والاستطلاع ، فانطلق خيالهم يخترع وينمق ، وترامت الإشاعات في كل ناحية وصوب أن بحيرة مسحورة نشأت في الوادي المنسي ، تسكن ضفافها الشياطين ، وتخفي في أعماقها كنزاً عظيماً ، هو كنز الخلود ، من كشفه فقد عرف سر الحياة ، فاستعصى على الموت ، وعاش أبد الدهر . . .

وانتهت قصة البحيرة وكنزها إلى آذان الأمير « زبرجد » ، فأنصت لها لاهيا بادىء ذي بدء ، ثم لم يلبث أن ألفاهـــا تستبد بمشاعره . والأمير « زبرجد » شاب وثاب المطامع ، جرىء يهوى المخاطر ، شغف بالفلسفة حينا ، فلما أحاط بدقائقها انتقل إلى الفروسية ، فبز فيها أعلامها ، ثم انساق بعد ذلك إلى مجالى الشراب والنساء ، فعب منها ماشاء أن يعب . وأخيرا برم بهذا كله ، وأحس الملل يشيع في حياته ، وتشتد وطأته عليه . فوجد في قصة هذا الكنز العجيب أكبر حافز له على النشاط والعمل على تبديد ضجره وكان ذكي الفؤاد ، فأدرك أن القوة وحدها لن تنيله أمنيته ، فلا بد له من اصطناع الخدعة والمكر ، والأخذ بأساليب خفية من السحر ،

تبعد عن النور إلى « نيتى » عميدة الساحرات ! ... وكانت تسكن قمة الجبل الأزرق ، فى كهفها المنقور فى الصخر ، لا يعيش معها إلا بومة محتضرة تلقى إليها بالوحى ، وقردة تهدل الأشداق يقوم على خدمتها . فتقرب إلى الساحرة بمنحة عظيمة القدر ، ورغب إليها أن تفقهه فى علوم الشياطين ، فقادته إلى « سرداب الحكمة » وهو حنية فى قاع بئر عميقة ، تحوى جميع ما استغلق على البشر عن فنون الشياطين وأسرارهم ! ... ومكث الأمير أعواما يدرس من غير كلال ، حتى استوعب موضوعه ، فخرج إلى النور شاحب الوجه ، غائر العينين ، ولكن قلبه عامر فياض ! ..

ذهب الأمير إلى منطقة البحيرة مستخفيا يستطلع ، واستطاع أن يدنو من المغارة الكبرى ، حيث يجتمع زفّاف ، برفاقـــه ، يرسمون الخططمرة ويسمرون أخرى ... وأنصت الأمير طويلا ، فسمع أشتاتا من حديث منهم عن قصر عظيم ، وأميرة مُنـسَّمَة ، وشخصية عظيمة تدعى « لزعبول » . ولما انفرد «زفاف» بصفيه «سرعرع» ، استطاع الأمير « زبرجد » وهو فى مخبئه أن يكشف من ثنايا حديثهما سرا خطيرا ، هو أن « زفافا » يحبس فى قلبه ميلا شديدا إلى الخمر التى يصنعها البشر ، وأنه يحن إلى معاقرتها فى تشوق ! ...

وفى الليلة التالية ، بينما كان « زفّاف » فى خلوته ، مع أمينه

« سرعرع » ، إذ سمع لغطا وهرجا غير مألوفين ، تبين فيهما صوت استغاثة . ولم يلبث أن رأى رهطا من الشياطين الموكول إليهم الحراسة ، يدخلون وهم قابضون على شيطان أجنبي زرى الهيئة ، يحمل وجه صعلوك شريد . . . فلما مثلوا بين يدى زعيمهم ، قال رئيس الحراس :

مولاى ! . . . وجدنا هذا الغريب يجول غير مبال فى منطقة نفوذكم السامى ، فأتينا به ، لتروا رأيكم فيه . . .

فاضطجع «زفاف» على أريكته ، وقال للغريب ، وهو يتفحصه فى تأفف :

من تكون ؟ . . .

— خادمكم «طغيان» ، من عشيرة « الفتاكين » البواسل !...

فقال « زفّاف » :

إنها لسبة لاتمحى أن تنتسب لهـذه العشيرة المجيدة ! . . . ورأس «بلزعبول» إنك لدعى كاذب، وسوف أقتص منك أشد قصاص

فركع « طغيان » وهو يرعد ، وقال :

لاتحكم على يا مولاى قبل أن تسمع قصتى ! . . .

— تكلم . . .

— لقد كنت من أشراف العشيرة ، قبل أن يحكموا على بالنفى...

- ولماذا تقول ذلك ؟ ...

- لأنى ذقت خمر البشر ، وأصبحت بعدئذ سِكِّيرا ! ...

فأصابت « زفافا » هزة ، وصمت برهة ، وهو يقلب بصره فى « طغيان » ، ثم صاح بجأة :

هذا جرم كبير ، وإنك لتستحق عليه الحبس أبد الدهر فى قمقم ملق فى أعماق البحار ! ...

والتفت إلى الحراس ، وقال :

أنفذوا فيه عقوبتى ! ...

وتكاثر الحراس على « طغيان » يريدون القبض عليه ، فحاول الإفلات منهم ، فزلت به القدم فوقع ، وسقطت منه قنينة خمر معتقة يخفيها تحت شملته ! ... وفاحت رائحة الخمر ، فعمت المكان بأسره ... وأخذ « زفاف » يتقلب على أريكته تقلب المحموم ! ...

وما لبث أن صاح :

دعوه لى سأقتص منه بنفسى ! ... خروجا ! ...

وخرج الجمع ، وبقى « طغيان » ، منفردا مع الرئيس ! ...

* * *

وتقضّت أيام ... ولوحظ على « زفّاف » أنه يبادر إلى الخلوة « بسرعة » كل ليلة ، متبرما بحديث الرفاق الآخرين ، وشوهدت بعض

قنينات فارغة متناثرة ، غير بعيدة من مغارة الرئيس ، فأخذ الأعوان يتهامسون ، ولكنهم لم يجرءوا على فعل شيء ، ثم هزوا أكتافهم في غير اهتمام ، وراحوا يبتسمون ! ...

في إحدى الليالي خرج « طغيان » من المغارة ، بعد أن ترك الرئيس وصفيته ملقيين على فراشهما ، يغطان غطيطا منكرا ، وبجوارهما قنينة فارغة ! ... خرج « طغيان » وهو يخفي تحت إبطه الخف السحري ، ويحمل في صدره كيسا فيه قبضة من مسحوق النوم ، واتجه على التو صوب البحيرة فألفى الحراس كسالى يتنادرون ، فرش في الفضاء جانبا من المسحوق ، فما لبثوا أن طواهم سبات عميق . وامتطى الخف السحري ، وانطلق يجري على متن البحيرة يسابق الريح . وكان يبسم فخورا ، وقد استطاع أن يكشف من « زفاف » سر القصر وربيبته ، وأدرك حقيقة الأمر في قصة « كنز الحياة والخلود » ! ...

واخترق منطقة السحب ، وكانت تحيط بالقصر من كل ناحية ؛ كما يحيط قشر البيضة بالفرخ الجنين ، فبان له على ضوء القمر الرائق بناء شامخ ، ملآه من روعة وسحر ! ... ولكنه لم يضع وقته في التأمل ، بل تابع انزلاقه على الماء ، حتى دنا من الباب المقفل ، فلم يتمهل أمامه ، بل مرق منه مروق السر في الآذان المرهفة ، وذهب على الفور إلى

الردهة التي تنام فيها « تخلوب » وأعوانها ، فألقى فيها بشيء من مسحوق النوم . ومن ثُمّ خرج ، واعتدل في وقفته ، ثم انتفض انتفاضة ، فإذا بالصعلوك الرث الهيئة فارس رشيق ، في حلة ثمينة ... وتقدم في خطا هينة نحو مخدع « أزاهير » ! . . .

ووقف عن كثب من الفتاة يتأملها ، وهي غارقة في فيض هادىء من نور القمر المحتجب ، فبهره حسنها . لقد كانت كاملة الأوصاف يزيدها بهاء حلتها المنسوجة من ناضر الزهر ، وفراشها المصنوع من خُصَل العذارى ! . . . وكانت أنفاس الليل العبقة تشيع في الجو دافئة طيبة ! . . . ووقف يتوسمها طويلا ، ويعجب لهذه الابتسامة الوضاحة على وجهها العاجي ! . . . وسائل نفسه :

لماذا أتى ؟ .. وما الذي ينتوي عمله الآن ؟ . . .

ووقف مترددا ثم وجد نفسه يتقهقر في حذر ، يحاول الإياب ، فعثرت قدمه بوسادة ، فوقع على الأرض ، ولكنه نهض عجلا يلم شعثه ، ويسارق الفتاة النظر ، فألفاها قد انتبهت ، وسمعها تقول في لهجة ذات نغمة منسجمة :

هل أرسلتك « تخلوب » بشيء ؟ ! ...

فلبث برهة وهو صامت ، يحدّ بصره في عينيها وداخله الشك في أمرها : أعينان طبيعيتان تبصران ؟ أم صنعة بلور ؟ ! ...

وسمع صوتها مرة أخرى فى لهجتها المنتظمة :

لماذا أيقظتنى ؟ . . .

ودنا منها وانحنى أمامها ، وقال :

السلام على الأميرة « أزاهير » ! . . .

فلم تتغير ملامحها ، وعجب لهذه الابتسامة الغريبة التى بقيت على حالها ، لم يتبدل لها وضع فى نوم أو يقظة .

وغمغمت الفتاة :

إن صوتك غريب . . . وأغرب منه هذه الملابس التى ترتدينها ، لم أرسلتك « خلوب » إلىّ ؟ ! . . . .

وهم الأمير أن ينبهها إلى خطئها فى خطابها إياه بصيغة المؤنث ، ولكنه ابتسم وقال :

لم ترسلنى « خلوب » ، بل أتيت من تلقاء نفسى ! . . .

ـــ لم أركِ هنا من قبل ! . . .

ـــ لست من سكان القصر ! . . .

ـــ من أنتِ ؟ . . .

ألقت عليه هذا السؤال فى لهجة أدهشته كل الدهشة ، لم تتغير نبرة صوتها ، ولم تنم صفحة وجهها ذى الابتسامة الدائمة ، عن أى انفعال أو تأثر . . . وهاتان العينان البلوريتان كانتا على حالهما فى

اللمعان والجمود ... وتراجع نحو الباب ، وهم أن يلوذ بالفرار ، بيد أنه وجدها قد نهضت من الفراش، وكانت رائحة القوام ولكنها لم تكد تسير بضع خطوات ، حتى تراءت له كأنها تمثال يتحرك، وسرت في جسمه رعشة ، وطافت برأسه شتى الأفكار ، ورآها تتقدم نحوه ، ثم لمست ثوبه متفحصة ، وقالت :

ستحضر لى « خلوب » ثوبا كهذا بلا ريب ! ...

ورآها تمسك بيده ، وتخرج معه إلى الشرفة الكبيرة التى تحيط بالقصر من كل جانب ، وكان المكان هادئا بالغ الهدوء ، ونور القمر على حاله ينفذ من الضباب رائقا مصفى ، و «أزاهيره» تسير فى خطواتها البطيئة المتماثلة ، وابتسامتها هى هى لا تغيض ولا تفيض ... وقالت له وهى تنظر أمامها :

لم تخبرنى من أنت ؟ ...

فابتسم لها ، وقال :

أيهمك أن تعلمى من أنا ؟ ...

فنظرت إليه بلورتيها اللامعتين ، وقالت :

كلا ، ولكن إذا رغبت فى التحدث فى هذا الشأن ، فسأصغى إليك ! ...

— إنى لست من أهل هذا المكان ! ...

ــ أأنتِ إذن « من العالم البعيد » ؟ . .

وأشرق وجهه تطلعا ، وقال :

أتعرفين شيئا عن هذا « العالم البعيد » ؟ . . .

ــ إنه عالم الصخب والشرور ! . . .

ــ ثم ماذا ؟ . . .

ــ لاشىء ! . . .

ــ كيف لاشىء ؟ أهذا كل ماتعرفين عن «العالم البعيد»؟ ...

ــ لم تريدين منى أن أعلم أكثر من ذلك ؟ . . .

ــ لمجرد المعرفة ! . . .

ــ إن المعرفة شاسعة ، والمجهول عظيم .. فلا يمكننا الكشف عنهما مهما نفعل . لأن هذا خارج عن نطاق قدرتنا العقلية ! . . .

ــ ولكن ثمة أسرار عن هذا المجهول ، قد نستطيع الوصول إلى معرفتها .

ــ لن تصلى إلا إلى التافه الضئيل !... وسيظل المجهول مجهولا إلى الأبد.

ــ لكن هذا التافه الضئيل قد يفيدنا !.. وربما قادنا إلى العظيم !...

ــ وهبْ ما تقولين ... فقد يكون فى الكشف عنه أكبر الشرور . فمن الخير تركه . . .

كانت تتكلم بلهجتها المتزنة ، كأنما شيخ وقور ، أو فقيه فيلسوف

ووقع بصرها على قلنسوته ، فسألت :

ما هذه ؟

— قلنسوة ! . . .

— ماذا ؟

— غطاء للرأس ! ...

— ولماذا تغطين رأسك ؟ . . .

فأعاد جملتها مفكرا :

لماذا أغطي رأسي ؟ . . . لقد نشأت وأنا أتخذ هذا الغطاء للرأس، دون أن أسأل عن فائدته ... لعله في الأصل قد استعمل لحماية الرأس ! . . .

— أتريته يحمي رأسك الآن ؟ . . .

— ليس كثيرا ! . . .

— إذن لماذا تستعملينه ؟

— أرجح أني أستعمله للزينة ! ...

— ولماذا تتزينين ؟ . . .

— لماذا أتزين . . . ما هذه الأسئلة ؟ . . .

— أتريني قد ضايقتك ؟ . . .

— كلا ، ولكنك منذ حين كنت تتكلمين عن المعرفة . وأنه

ليس ثمة فائدة من الاستزادة منها ... وأنت فى الوقت نفسه،لكى تزدادى معرفة ، تمطريننى وابلا من الأسئلة ! . . .

— يلوح لى أنى أخطأت ! . . .

— بالعكس . . . رأيى أنك أصبت الإصابة كلها ! . . .

فصمتت برهة ، ثم قالت :

ألا تقولين لى لماذا تتزينين ؟

— لتغدو هيئتى مقبولة ! . .

أى أن هيئتك بدون الزينة غير مقبولة ! ...

— يحتمل . . .

— إذن ماتفعلينه نفاق وتغرير ! . . .

فحدّق فيها الأمير وقتا ، ثم ابتسم وقال :

قد يكون لونا من النفاق والتغرير ! . . .

— إن النفاق والتغرير شر جسيم ! . . .

فانطلق الأمير يضحك ، ثم أخذ يديها ، وقال :

« أزاهير » ! . . .

— ماذا ؟ . . .

— أراك تتحدثين عن الشر ، فهل تعرفين ماهو ؟ . . .

— هو شيء ردىء ! . . .

— هل أتيت الشر لتفهمى ماهو ؟ ...

— لم آته قط ! ...

— إذن كيف تعرفينه ؟ ...

— أعرفه بضده ، فأنا بالخير عليمة ! ...

— أمعرفتك بالخير الصرف كافية لأن تفهمى الشر ، وتميزى بينه وبين ضده ؟ ...

— بلا ريب ! ...

ودنا منها على مهل ، حتى تقارب وجهاهما . ثم اقتطف من فمها قبلة ، وقال وهو يرنو إليها :

أمن الخير هذا أم من الشر ؟ ...

ولبثت « أزاهير » صامتة تنظر إليه ، ووجهها كما هو بملامحه الصلبة . غير أن أمرا واحدا قد وقع : أن ابتسامة وجهها قد اعترتها بعض خلجات خاطفة ، وسمع الأمير « أزاهيرَ » تقول

ماذا تقصدين بما فعلتِ ؟ ...

— قبّلتكِ ! ...

— ماذا تقصدين بأنكِ قبلتنى ؟ ...

— وصلت بين روحى وروحك فترة من الزمن ! ...

فتوقفت « أزاهير » عن الكلام مفكرة ، ثم همست :

وصلت بين روحي وروحك ؟ !

وأرسلت الفتاة بصرها فيه ، وهي تقول :

وما الذي دعاك أن تفعلي ذلك ؟ . . .

ـــ إعجابي بك ! . . . أنت رائعة الجمال يا « أزامير » ! . . .

وأنصتت إليه ، وابتسامتها تغزوها الخلجات بين حين وحين ، وقالت :

أنا رائعة الجمال ؟ . . .

ـــ ألا تعرفين ذلك ؟ ! . . .

ـــ وما هو الجمال ؟ . . .

ـــ الجمال ضد الدمامة ؟ . . .

ـــ وما هي الدمامة ؟ . . .

فضحك الأمير ، وقال :

ضد الجمال ! . . .

ـــ أنت تعبثين بي ! . . .

ـــ ألم تقولي إن كل شيء يتميز بضده ؟ . . .

ـــ ألا يمكنك أن تريني شيئا دميا ؟ . . .

فالتفت حوله ، وهو يجمجم :

هنا كل شيء جميل ، مع الأسف ! . .

فأمسكت بيده ، وقالت :

قولى لى ، ما هو الجمال ؟ . . .

— الجمال ! ... الجمال هو ما تهواه النفس ، فيبعث فيها الغبطة والارتيـــاح . . .

— إذن كل ما هو حولى جميل ؛ لأنه يبعث فى نفسى الغبطة والارتيـــاح . . .

— بلا جدال ! ...

فصمتت برهة مفكرة ، ثم قالت :

لماذا لايحضرون لى شيئا دميما أراد ؟ ...

فابتسم الأمير ، وقال :

يلوح لى أن الدمامة شر ! ...

— وهل هى موجودة فى « العالم البعيد » ؟ . . .

— « العالم البعيد » يزخر بشتى الألوان ؛ من جميل ودميم ، وخير وشر . .

فاضطربت أنفاسها شيئا ، وقالت وهى تحدّ بصرها فيه :

— ألا تحدثينى عن العالم البعيد ؟ . . .

— قد أريك إياه يوما ... أما الآن . . .

وأمسك يدها يلاطفها ، وقال فى حنو :

الآن أريد أن أحدثك عن نفسك . . . أنت رائعة الجمال يا « أزامير » ... رائعة كأنفاس الصبح ، بديعة كورد الربيع ... بيْدَ أن ...

— ماذا ؟ . . .

وصمت هنيهة ، ثم قال :

أرى أن زيارتى قد امتدت ، فأغارت على وقت نومك . . . ألا تأذنين لى بالانصراف ؟ . . .

— ومتى تعودين ؟ . . .

— أأنت فى حاجة إلىّ ؟ . . .

— لتسمعينى شيئا عن « العالم البعيد » ! . .

— قد أعود ، وقد لا أعود أبدا ! ...

فاختلج وجهها ... ودنا منها ، وطوقها بذراعه ، وأمال رأسها على صدره ، وقبّلها قبلة طويلة ، وما كاد ينتهى منها حتى أبصر عينيها البلوريتين المتناهيتين فى الصفاء والسكون ، قد طافت بهما بعض غيوم مربدّة ، وغاضت ابتسامتها لحظة ، وهى تقول :

اخرجى واتركينى . . . ولا تعودى إلىّ أبدا ! . . .

وفى لمح البصر اختفى الأمير عن وجهها . . .

* * *

تلك هي المرة الأولى التي تتأخر فيها الأميرة « أزاهير » في نومها ، ولما أحضرت لها « خلوب » الفطور ، لاحظت على وجهها العاجي الناصع حمرة خفيفة ، كما أن لمعة عينيها لم تكن في صفائها المألوف ، ولكن ابتسامتها ما زالت كما هي لم يتبدل لها شكل ! ...

وبينما كانت « خلوب » تلقى على « أزاهير » درس الحكمة إذ بالفتاة تقطع عليها حديثها ، وتقول :

كيف أستطيع أن أميز بين ضدين إذا جهلت أحدهما ؟ . . .

فتفحصتها « خلوب » برهة ، ثم قالت :

هذا موضوع قد فرغنا منه ، بعد أن وفيناه حقه . . . أنسيت ما لقنتك إياه ؟ . . .

— إني أحفظه كلمة كلمة .

— إذن علام هذا السؤال ؟ ...

— هكذا ! . . .

وانطلقت « خلوب » تعيد على مسامع الفتاة ما كانت لقنتها إياه في هذا الموضوع ، و « أزاهير » أمامها تنظر إليها مصغية . . . وقالت لها بغتة :

ألا تخبرينني بذلك « الأمر » الذي يصل بين روحين ؟ . . .

فرمتها « خلوب » بنظرة عميقة ، وغمغمت :

لذى يصل بين روحين !...

ثم اقتربت منها عجلة ، وقالت :

ما هذا الذى يهجس فى خاطرك اليوم ؟ . . .

فتركتها « أزاهير » ، وسارت نحو النافذة ، تستقبل بسمات النسيم ، ثم تمددت هادئة على متكإ وثير وأغمضت عينيها . . .

وهرعت « خلوب » إلى الوصائف ، فأسرعت إليهن بما رأت وما سمعت ، وسرعان ما سرت الرعشة فى أبدانهن ، وانطلقن على الفور يتناقشن فيما يجب عليهن من عمل . أيعرضن الأمر على « زفاف » ليبلغه إلى الزعيم ، أم يكتمن الخبر خشية العقاب ؟ ... وبعد مفاوضة أخذن بالرأى الآخر ، واعتزمن أن يعالجن الموضوع فى تدبير وحكمة ، وأن يشددن الرقابة على « أزاهير » .

وحل المساء ، وآب كل إلى مخدعه ، وأسبلت « أزاهير » جفنيها ولكنها لم تنم . كانت تنصت إلى كل حركة أونأمة ... وبغتة فتحت عينيها ، وقالت :

هاقد أتيتِ !...

وسمعتْه يقول :

لقد رغبتِ فى حضورى ! . . .

وكان يرتدى حلة جديدة لا يلبسها إلا أبناء السراة ، ويتقلد

هذه المرة على جنبه الأيسر سيفاذا مقبض مرصّع فقامت إليه ،
ووقفت أمامه تتفحصه معجبة بهيئته ، ثم قالت :
ما هذا المعلق على جنبك الأيسر ؟ ..
— سيفي ! ...
— عصا تعبثين بها ؟ ...
— بل أذيق بها الموت ! ...
وأخذت سيفه تطيل النظر فيه ، وهي تردد :
الموت ؟ ! ...
— حذار ، فهذا السيف رسوله الأمين ! ...
ورفعت عينيها إلى وجهه ، وقالت :
ما هو الموت ؟ ...
— الموت ...
ثم تريث ، وعاد يقول :
الموت ضد الحياة ! ...
— ضد الحياة ؟ ...
— كل ما هو من خصائص الحيّ من حركة وتنفس ووحدة
جثمانية ، وما إلى ذلك ، لا تجدينه في الميت ! ...
— إذن فالموت انقلاب فظيع ! ...

— بل تغير بسيط : تحول يطرأ على المركب فيحيله إلى عناصره البسيطة . . .

— أشر هو ؟ . .

— من يدرى ؟ . . .

— كيف لا تدرين ؟ . . .

— تعالى إلى البستان نستنشق نسيم المساء . . .

وأخذ يدها فخرجا إلى الشرفة ، ثم هبطا إلى البستان . . . حديقة فواحة ممتلئة بأصص الأزهار والأشجار ، ذات تنسيق فريد ، تشقها طرق مرصوفة بالحصباء الملونة ، وتجرى فيها جداول عذاب . وكان الصمت شاملا يغشى كل شيء ، فيسمع لخفق الأقدام وقع جميل . . .

ووقع بصر الأمير على وعاء من المرمر فيه سائل ، فقال لها : ما هذا ؟ . .

— عصير من الفاكهة صنعته « خلوب » ! . . .

— أهو شرابك ؟ .

— نعم . . .

— أتسمحين لى أن أذوقه ؟

— خذى منه ما يروقك ! . . .

فجرع الأمير من الوعاء جرعة ، ثم قال :
شراب لذيذ لم أذق مثله فى حياتى ! . . .
— أتراه كذلك ؟ . . .
ورنت إليه « أزاهير » برهة ، فابتسم لها ، وقال :
أتسمحين لى أن ألفت نظرك إلى خطإ تقعين فيه وأنت تحدثيننى ؟ . . .
— أى خطأ تعنين ؟ . . .
— تخاطبيننى بصيغة المؤنث ! . . .
— ماذا تقصدين بذلك ؟ . . .
— إن دنياك كلها إناث على ما يلوح لى . . . أما دنياى ففيها الذكور والإناث .
ثم أخذ يشرح لها ما يلائم كل جنس من نعوت ، وما يجب عليها أن تخاطبه به ، فقالت له فى يسر :
إذن أنت من الصنف الأول ؟ . . .
— أصبت ! . . .
فسرحت بصرها فى الأفق مفكرة ، وقالت :
وهل ثمة فارق بين الجنسين ؟ . . .
— نعم ، ولكنه فارق لا يباعد بينهما ، بل يجمع ويؤلف ! ...

ـ كيف يجمع بينهما ويؤلف ؟ . . .

ـ بالحب ! . . .

ـ الحب . . . ما هو ؟ . . .

ـ هو امتزاج بين عنصرين ! . . .

ـ أخير هو ؟ . . .

ـ بل شر جميل ! . . .

ـ شر جميل ؟ كيف يتحد الضدان ؟ . . .

فأطال الأمير فكره لحظة، ثم لم يلبث أن أخرج من جيبه شبه مدية ، وسرعان ما جرح بها بطن كفه ، فانبثق الدم من الجرح فجمعه فى راحته . فقالت له «أزاهير» وهى تراقبه :

ما هـــذا ؟ . .

ـ بعض قطرات من دمى . . .

ـ دمك . . . ماذا تعنى ؟ . . .

ـ دمى . . . نعم دمى ... السائل الذى يغذى جسدى .

ـ ومالى به ؟ . . .

ـ ذوقيه . . .

ـ لماذا ؟ . . .

ـ قلت لك ذوقيه ! . . .

فما كادت تذوقه ، حتى قالت :

ليس طيبا ! ...

— إنه كريه المذاق ! . .

ومزج الأمير ماجمعه من دمه بعصير الفاكهة ، وقدم الوعاء لها ، وقال :

اشربى ! ..

فأطاعت ، وقال لها وهو يراعيها :

أليس من السهل أن يتحد الضدان ، ويكونا مزاجا عجيبا ؟ . .

فتمتمت الأميرة :

إنه مزاج لطيف ! . . .

وأقبل عليها الأمير ، ولف نفسه وإياها فى عباءته ، وسرعان ما وجدت «أزاهير» نفسها متعلقة به ، وهو يطير بها فى الجو تاركا القصر وساكنيه . . . فأحست شعورا غامضا غريبا يسرى فى جسدها جعلها ترتعش ، فهمست قائلة :

ماذا تقصد بهذا ؟

— أريد أن أحملك إلى موطن الشر والجمال . .

وكاد الذهول يستولى عليها ، واستبد برأسها الدوار ، فأراحته إلى صدر الأمير ، وأطبقت جفنيها ! . . .

وجعل الأمير يرنو إليها ، وهو يعلو بين طبقات السحاب .
فوجد شفتيها ترتعشان ، وقد اصطبغتا بحمرة لطيفة ، فأدنى وجهها من وجهه ، وغاب وإياها فى قبلة مديدة ! . . .

ولما أراد إيقاظها همست قائلة ، وفمها على فمه :
دعنا كذلك . . .

— ولكننا وصلنا ! . . .

وفتحت « أزاهير » عينيها ، فغشيتها الأنوار الخاطفة ، فحجبت نظرها بيديها ، وهى تقول :
أين نحن الآن ؟ . . .

— فى إيوان من قصرى ! . . .

وأخذ بيدها وأجلسها على متكإ وثير ، وقال لها :
استريحى لحظة ريثما أرسل من يحضر لك ملابسك الجديدة .

— ملابس كلا بسك ؟ . . .

— بل مايشابهها ! . . .

واكتنفت أذنها بعض الصيحات والضجة المختلطة ، فقالت وهى تحاول أن تنظر إلى وجهه :
ماهذا ؟ . . .

— إنها ضجة الاحتفال ! . . .

. أي احتفال ؟ . . .

— لقد جمعت في البهو الكبير القائم تحت هذه الحجرة جماعات [illegible] ، سيقضون الوقت في طعام وشراب ، ثم في سمر ورقص وغنـــاء .

— وأنا ؟ . . .

— لا تخشي شيئا ، سأذهب لأدعو بوصيفة معها الملابس ! . . .

وتعلقت به ، وقالت :

لا تتركني ! . . .

— سأكون على مقربة منك . . .

وخرج الأمـــير من الحجرة ، وبعد قليل دخلت الوصيفة بالملابس ، واختلت « بأزاهير » ! . . .

وخلعت الفتاة ملابس الزهر ، وارتدت ملابس الأميرات من بني الإنسان . ووقفت أمام وصيفتها تزينها وتعطرها ، وتصفف شعرها ، وتلبسها الحلى الغوالي ، ثم ذهبت بها الوصيفة إلى مرآة كبيرة فما إن تراءى لها خيالها كاملا تجاهها حتى تراجعت بضع خطوات . . . ثم ما لبث أن تقدمت وهي تتأمل نفسها طويلا .

ودخل الأمير « زبرجد » ، وهو يصيح طربا :

يا للجمال الإلهي ! . . . تعالي فقد حان الوقت لأن أظهرك

للمدعوين . وانف ساعده بساعدها ، وترك الحجرة ، وهاه ا تسير بجواره صامتة وعيناها تائهتان . وما إن أقبلا على السلم ، واخذا ينزلان فى الدرج ، حتى لمحت « أزاهير » البهو الأدنى يموج بحشد كبير من الزوار ، فتوقفت ثم غمغمت :

لا . لا . . . لا أريد ! . . .

— كيف ؟ . . .

— عد بى إلى قصرى ! . . .

— ألا تريدين أن تشاهدى دنياى ؟ . . .

— وماذا يهمنى منها ؟ . . .

— فى الواقع لا شىء ، ولكن ثمة نساء فى البهو ، أميرات وغير أميرات ، تتنافسن فى الملاحة والزينة والمقدرة على اصطياد قلوب الرجال . . . إنه منظر فريد . . . يجب ألا يفوتك مرآه . . .

فقالت بصوت خافض :

عد بى إلى قصرى . .

ونزل معها فى الدرج ، وهى تزداد التصاقا به . وما إن أشرفا على البهو حتى شخصت إليهما الأبصار ، وسكنت على الفور الضجة . وبعد برهة سمع هتاف الجمع يردد :

مرحبا بالأمير « زبرجد » ! . . .

وأجاب الأمير صائحاً:

مرحبا بكم أيها الإخوان ... لقد وعدتكم بمفاجأة طريفة، وقد وفيت بوعدي ... إن الأميرة «أزامير» سيدة مملكة السحاب، قد تواضعت فشرفت بحضورها هذا الاحتفال ... حيوا الأميرة معي ورددوا: مرحبا بالأميرة «أزامير» سيدة مملكة السحاب! ..

فصاح الجمع بعده يردد قوله في حماس، ثم ركع الأمير «زبرجد» أمام «أزامير» ولثم يدها، فانحنى الناس كلهم لها في تحية طويلة.

فمضت «أزامير» تحدق برهة فيهم، ثم رفعت رأسها في زهو وخيلاء، وردت تحيتهم في صيحة عالية! ...

وسار بها الأمير يخترق وإياها الصفوف، والجمع يتزاحم حولهما يلتهمهما بعيونه المتطلعة، وأخذت الضجة تعود إلى سابق عهدها، وانطلقت الموسيقى تحلق بأنغامها في جو المكان، وقد اشتد سطوع الأنوار، وكانت «أزامير» تسير وهي لا تعرف من أمرها شيئاً، لقد اختلط أمامها كل شيء .. ما هذا الذي تراه: أحقيقة هو أم خيال؟ وما هذا «الزبرجد» العجيب؟ وما شأنه معها؟... وهذا الجمع المحدق بها، وهذه الأصوات، وهذه الأنوار... إنها لتحس تخاذلا!

ورآها الأمير تترنح، فاحتضنها فإذا هي تفقد الحس بين ذراعيه ... وذهب بها إلى حجرة قريبة، وأرقدها على أريكة لينة، ولم يدع

أحدا يتبعه ، وعُنِيَ بها حتى أفاقت وإذ رأته قالت :

ماذا حدث ؟

— لا شيء ! .. أخذك على حين غرة نعاس رقيق ! . . .

فدارت بعينيها حولها ، ثم قالت :

عد بي إلى قصري ! ..

— هذا ما فكرت فيه أيضا ! ...

— هلم ! . .

وأدنى كأسا من فمها ، وقال :

اشربي ! ...

— ما هذا ؟ ..

— شراب مفيد ! ...

فشربته على مضض ؛ إذ لم تستسغ مذاقه وقالت .

أشعر بجسمي يلتهب ...

— لا تخشى بأسا ...

— متى نعود ؟ . .

— في الحال ! . . .

— وأنت ماذا تصنع بعد عودتي ؟

— سأرجع هنا ! ...

وأخذ كأسا فأفرغ شرابها فى فمه دفعة واحدة ، فقالت :
أتحب هذا الشراب ؟ ...
— نعم ! .. لما فيه من قوة خارقة ! ...
— اسقنى منه ! ...

* * *

وخرج الأمير « زبرجد » و « أزاهير » ثانيا إلى البهـــو ، فاستقبلهما الجمع بالتهلل ، ثم لم يلبث النـاس أن انصرفوا إلى أنفسهم ، وأخذوا بين الفينة والفينة يطعمون ويشربون ، فاندفع « زبرجد » بفتاته معهم يشاركهم طربهم وقصفهم ... ووجدت « أزاهير » نفسها تضحك كما يضحكون ، وترقص كما يرقصون ، وأسرفت فى الشراب . وكانت تلازم الأمير ، لا تدعه يبتعد عنها . وانتبهت مرة فرأت نفسها أمام كأسها منفردة ، وعن كثب منها جماعة من الفتيان ينظرون إليها مبتسمين ، وحدّت من بصرها حولها تبحث عن الأمير ، وبعد لأى وجدته فى حلقة الرقص مع فتاة يخاصرها ، فألفت نفسها تترك مكانها على عجل متجهة صوبه ، فلما دنت منه اختطفت سيفه من غمده ، وفى لمح البصر أحست يدها تهوى على الأمير ، فمس السيف كتفه ، ثم ارتدّت صائحة ، وقد خُيِّلَ لها أن الأرض تميد تحت قدميها ، وأن البهو قد انقلب

فأصبح عاليه أسفله . . . ورأت نفسها تسقط ... ولما عاد إليها وعيها ألفت نفسها مع « زبرجد » منفردين فى حجرة ، فبادرته بقولها :

ماذا فعلتُ ؟ . . .

فأجابها مبتسما :

ضربتنى بالسيف ! . . .

— إذن قتلتك ؟ ! . . .

— كلا ! . . .

— بل أنت ميت ! . . .

— لَمْ أمت . . .

— كيف ؟ . . .

فلاطف خدها ، وقال :

إن السيف فى يد الحسناء يفقد مضاءه .

— أنت تكذب ! . . .

— « أزاهير » ! . . .

— لقد أتت « أزاهير » أمراً فظيعا . . .

ثم امتلأت عيناها بغتة بالدموع ، ومالبثت أن أحست بالقطرات الساخنة تسبح على وجنتيها ، حتى ارتاعت وأخذت تحسسها بأصابعها ، وتقول :

ماهذا ؟ ...

— إنها دموع تسكبها عيناكِ ؟ ...

— دموع ؟ ومن أين أتت ؟ ...

— من نبع قلبك ...

— أليست فى روحى تنسكب قطرة قطرة ؟ ...

وأرادت «أزاهير» أن تمسح تلك القطرات بكفها، فقال لها الأمير:

لا تفعلى ! ...

— لماذا ؟ ...

وأمسك يديها ، وجعل يحدق فى وجهها وقتا ، وقطرات الدموع اللؤلئية تنحدر على صفحته ، تارة هادئة وطورا عجلة ، ثم أدنى رأسها منه ، وهَوى على فمها يقبلها قبلة حافلة ! ...

* * *

وأخذ الأمير فتاته بين ذراعيه ، وبسط على منكبيه عباءته ، وطار بها يشق السحب عائدا إلى القصر . وفيما كانت «أزاهير» متوسدة رأسه وهى تنظر إليه ، وهو يطوى أطراف عباءته ويبسطها كما يفعل الطائر بجناحيه ، همست فى أذنه :

عجيب أمر هذه العباءة ! ..

— إنها بدعة البدع ، تخفى من يرتديها عن العيون ، وتذهب

به حيث شاء ، متى شاء ! . . .

ودخلا القصر . وأشعة الفجر ترحب بهما ، وأرقده وزير جده الأميرة على فراشها ، وقد أصبح وجهها يتلهب بنضرة الحياة ، ثم وقف قبالتها صامتا ، ونظره لا يفارق طلعتها ، فقالت له وقد ألح عليها التعب :

لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟ . . .

— إنها نظرة الوداع الأخير يا « أزاهير » ! . . .

ففتحت جفنيها الذابلين ، وقالت :

أتزعم أنك لن تعود ؟ . . .

— نعم ! . . .

ثم صمت برهة ، وهو ينظر أمامه نظرا تائها ، وهمس .

لماذا أردتُ كشف سر هذا المكان ، والوصول إليك ؟ . . .

ثم ركع أمامها ، وأمسك يديها ووجهه قبالة محيّاها ولبثا وقتا ونظراتهما متصلة ، ثم انحنى الأمير على يديها ، واندفع يلثمها . .

وقام يريد الخروج ، فاستبقته قائلة :

ألا تترك لي شيئا يذكرني بك ؟ ! . . .

— أترغبين في شيء معين ؟ ! . . .

فهمست له برغبتها . . فوقف أمامها برهة مترددا ، ثم ناولها ما طلبت ، وخرج على عجل ! . .

وقلقت « خلوب » إذ رأت أن النوم قد استبد « بأزاهير » إلى وقت متأخر ، فدخلت عليها توقظها ، ولما دنت منها لحظت أن وسادتها مبتلة ، وقد عهدتها دائما جافة . أهو ندى الفجر قد تسلل فبللها ؟ ... ولكن نظرة واحدة إلى وجه « أزاهير » كانت كافية لأن تلق بالرعب فى قلبها ..

وتقدمت « خلوب » فأيقظت « أزهير » ، وما إن فتحت الفتاة جفنها حتى بادرتها المربية بقولها :

أشاهدت رؤيا أثناء نومك ؟ ...

— رؤيا ؟ ...

— رؤيا رديئة ؟ ! ...

وأخذت « أزاهير » تتلفت حولها ، ثم قالت :

رأيت كأن السحاب الذى يحيط بالقصر قد هبط ولامس الماء ! ...

فنظرت إليها « خلوب » واجمة ، ثم خرجت تعدو إلى الوصيفات ، وهى تكاد تجن ، وشرحت لهن حالة « أزاهير » فسرت فى أجسادهن الرعدة ، وتمثلت لهن مملكة الظلام بأعاصيرها السود الهوج ، تلهب أجسادهن بسياطها الكاوية ، إذ أعدها لهن « بلزعبول » إذا لم يصبن نجاحا فيما كلفنه ! ...

وتفرقن شيعا يراقبن « أزاهير » فى غدوها ورواحها . ولفينها

تقضي الوقت ساهمة مفكرة ، وقد أضربت عن تلقي دروس الحكمة ، ثم رأينها تقوم إلى الحديقة ، وتطيل النظر في مائها حيث تنعكس على صفحة الماء صورتها ، وشاهدنها والعجب آخذ منهن مأخذه وهي تقطف الأزهار القانية ، تلون بعصيرها خديها . ثم رأينها وهي تصفف شعرها على نحو جديد لم يعرفنه من قبل ، ثم لاحظنها وهي تسير على حافة الغدير ، تتخايد في مشيتها .

وكانت « خلوب » وصواحبها كلما رأينها تفعل ذلك ، اصطكت أسنانهن هلعا ، واعتزمن ألا يتركنها منفردة على الإطلاق .

ولما حان وقت النـــوم ، وتمددت « أزاهير » على فراشها ، ازدحمت التابعات ، وعلى رأسهن « خلوب » ، حول بابها وتحت نافذتها . فأقمن أنفسهن حراسا عليها ! . . .

* * *

وقبيل السحر هبت « أزاهير » من نومها ، ونهضت من فراشها في حذر ، فوجدت الوصيفات قد استغرقن في النوم ، فقصدت على الفور إلى المخبأ الذي أخفت فيه تذكار الأمير ، وأخرجته ، فكان العباءة السحرية !

وبسطتها على منكبيها ، وفي لحظة اختفت عن الأنظار . . .

الجـــزاء

كان فى مستهل العقد الرابع من عمره ، يتنضر شبابه ، وتكتمل فيه الرجولة والحصافة . . .

مهوى فؤاده : الموسيقى ، فى جوها يحيا ، ومنها يستمد هناءة البـــال . . .

تلمح فى عينيه وميض الأحلام ، وترى فى وجهه سمات من وداعة الروح . . .

تمـلـكه حب الفن ، فوهبه حياته ، وقصر عليه جهده ، ولـكن مطالب العيش تناديه ، وليس هو بذى مال فيستغنى عن التكسب. وإذن فلا أقل من أن يطلب الكسب بفنه المفضل . . .

وكذلك آثر أن يكون مدرسا موسيقيا ، فإنه فى قيامه بهذه المهمة ، لا يبتذل الفن بل يعمل على إعزازه ، إذ يسكب روحه، روح الفنان ، فى أنفس طلابه ، فكأنما هو يضاعف بذلك من شخصيته ، وينمى من سلطانه ، ويضيف أعمارا متعددة إلى عمره . . .

ويوما جُلبتْ إليه صبية تحبو إلى العاشرة ، أعيت أهلها فى تعلم العزف على «البيان» ، وكانوا حرصاء على أن تحذق ذلك الفن

الذى أصبح من حلية التمدن الحديث ! ...

وراضها الأستاذ بأسلوبه وحيلته ، حتى أسلس قيادها ، فأقبلت تتذوق الفن وتألفه ، وتبدل كرهها للموسيقى شغفاً أى شغف !! ...

وكان من عادة الأستاذ أن يقيم فى بعض المناسبات حفلات ، يدعو إليها أسر الطلاب ، ونخبة من شيعة الفن وأصفيائه ، فيعرض فى هذه الحفلات نماذج من جهده الفنى ؛ ممثلا فيما يعزفه الطلاب ...

ومرة أقام الأستاذ حفلة ممتازة ، فانتظم عقد مدعويه ، وكانت أسرة الصبية أخوف ماتكون ، لاتدرى ما هو نصيب فتاتها من التوفيق أو الإخفاق ؟ . . .

وبدت الصغيرة فى صف الطلاب ، تكسوها حـــلة وردية ساذجة ، وتتميز بوسامة هادئة ، على الرغم مما شاع فى وجهها من شحوب ، وما تجلى فى عينيها من قلق واضطراب . . .

وتتابع الطلاب على المنصة ، يؤدى كل منهم ماطلب إليـــه ، ويظفر بتصفيق الإعجاب والاستحسان ! . . .

حتى جاءت نوبة الصغيرة ، فخطت إلى البيان ، وجلة تتعثر ؛ كأنما قد انسدلت على عينيها غشاوة حجبت عنها الطريق ! . . .

فدارت برأسها مذعورة تلتمس الخلاص من حرج مؤيس ، فطالعها وجه أستاذها ، قد انتبذ مكانا من المنصة يخفيه عن العيون ،

وافتر ثغره لها عن ابتسامة رفيقة ، تحمل بين ثناياها الطمأنينة والوثوق ... فتعلقت نظراتها حينا بعينيه ، تستمد من وميضهما المتألق روح الهداية ووحى الفن ! ...

وإذا هي ماضية إلى «البيان» ، وما برحت عيناها موصولتين بعيني الأستاذ ، وجلست على كرسي العزف ، وامتدت يداها تجرى أصابعها على مفاتيحه ، فانبعثت الأنغام تتموّج وتتدرج ، وتعلو وتهبط ، وتسرى في أرجاء الحفل تداعب المسامع في رقة ولطف ...

وكان أمام الفتاة صفحة الموسيقى ، ولكنها لم تلق عليها نظرة ، بل كانت تعزف ، وهي تنظر إلى أستاذها ؛ كأنها تقرأ على جبينه الناصع النيّر مراتب الأنغام ...

وعم الجمع صمت شامل ، وأرهفت الأسماع ؛ لتستوعب ذلك النغم الشجي ، وتستمرئه في شغف وإقبال ...

وألفت الصبية نفسها تحيا في ألفاف نشوتها ؛ كأنها في غيبوبة منام ، وتنتقل إلى أفق علوى لا تحس فيه للحاضرين من وجود ، ولا ترى إلا تينك العينين ، عيني أستاذها ، تنيران لها السبيل .

وبعد حين أحست الصبيّة بأنها تهبط رويدا من أفقها العلوى إلى مستقرها الأصيل ، وإذا هي تستفيق من غفوتها الروحية ، فتجمعت أصابعها تصافح « البيان » إيذانا بالختام ! ...

وتعالى التصفيق، وحمي الضجيج، وتحفت الحناجر بالهتاف.

خفقت الفتاة فى الجمع حيرى وجلة، تسائل نفسها:

ما خطب الناس؟...

وفيم هذه الصيحات؟...

وتحاملت على ساقيها، تمشي فى خطاها المتعثرة، تكاد تنكفىء.

فتبادر إليها الجمع يهنئونها ويغدقون عليها الثناء. ودنا منها والداها فى حنو وابتهاج، يزفان إليها مكافأة النجاح...

وانتبهت الفتاة لنفسها، والناس من حولها يتحلقون، فدارت بعينها تتفقد شخصا بعينه، فلم تره... وأطالت البحث والتفقد، تتخطى بنظراتها جموعا لا يعنيها من أمرهم شيء!...

إنها تريد أن تسمع كلمة الرضا من فمه، وترى نظرة الاستحسان فى عينيـــه!...

فى تلك الكلمة وهذه النظرة برهان توفيقها ونجاحها، وليس فى سواهما برهان!...

وأحست دافعا يحدوها، فانطلقت تشق الزحام...

وانتهى بها المسير إلى ذلك الركن القصيّ بجوار المنصة، ولم يكن بمرأى من جمع الناظرين، فوجدت أستاذها هنالك، يقلب النظر فى دفتر الموسيقى فى جدّ واهتمام!...

ووقفت أمامه تُشعره بقدومها إليه ، فما إن أخذها بصره حتى هش لها ، وتطلقت أساريره ابتهاجا بها . . .

وأمسك بيديها يهزهما قائلا :

مَرْحَى . . . مَرْحَى يا بنية . . . إنه لفوز عظيم ! . . .

فأجابته فى صوت مختلج النبرات، وعينها حيرى لا تستقر نظراتها:

أحقا أحسنتُ العزف ؟ . . .

— كل الإحسان . . . .

— شدّ ما كان أبى وأمى يائسين من أمرى، وهما الآن يرضيان عنى...

فلاطف يديها فى رقة ، وقال :

لقد كنت تلميذة مجتهدة وقد وصلت باجتهادك إلى درجة علية ...

فشدّت على يد أستاذها ، وهى تسائله فى الحاح ساذج :

أحقا أبدعتُ ؟ . . .

فانفرج فمه عن ابتسامة رحيبة ، وقال :

— كل الإبداع ! . . .

كانت الفتاة ماثلة تجاهه فى حلتها الوردية ، كالزهرة الناضرة ! ... أشاعت فيها غبطة النجاح يقظة ومراحا ، فأسبغت على طفولتها رونقا جذابا . . . توهجت وجنتاها ، وتألقت عيناها ، وتجلت فيها سمات باكرة من أثر المستقبل، وخصائص لمّاحة من حسناء الغد ! ...

فى وقفتها وشارتها ورنة صوتها ، يتراءى طيف المرأة فى أبهى حلاها ، ومن حولها تنبعث نفحات لطاف من أريج الفتنة والسحر ! ...

وألقى الأستاذ على فتاته نظرة طيبة صافية ، وقال لها :

إنى أعد لك هدية أجزيك بها على نشاطك واجتهادك . .

فتطلعت إليه الفتاة ، وهى تقول فى سذاجة الطفلة المهتاجة :

وأنت ؟ . . . ألست أحق منى بالمكافأة ؟ . . . وماذا يجب على أن أمنحك ؟ . . .

فتضاحك الأستاذ ، وقال .

وماذا عندك لى من عطاء ؟ . . .

فواصلت الفتاة حديثها فى اهتياج الطفولة :

اطلب مابدا لك ! . . .

فرنا الرجل إليها فترة ، يجتلى محيّاها الوديع ، وقال :

حسبى منك هذا يابنية ! . . .

وأخذ يدها يرفعها إلى فمه . . .

فالتمعت عيناها بغتة ، وهى تمنع يد . . .

إنها لتحس بغريزتها أن قبلة اليد ليست هى المنحة المختارة . . .

إن اليد وإن كانت غضة بضة ، لهى أعجز أن تمنح الأعز الأغلى !! .

إن اليــــد لتعيــا عن أن تصل بــــين الروح والروح ، وتجيب

الإحساس بالإحســـاس . . .

فلتمنح أستاذها ما تراه جديرا بما له فى عنقها من جميل . . .

وتدانت منه ، واشرأبت إليه ، وهى شاخصة البصر ، مهتزة الأوصال . . .

وسرعان ما ألقى الأستاذ يديه تحملانها ، حتى دنا وجهها من وجهـــه . . .

فأقبلت شفتاه على ثغرها الصغير ، تقتطفان منه قبلة هائلة ، كانت أحسن الجزاء ! . . .

أم ! ...

مات ابنها وهو فى سن الأربعين ، وكان رجلا كله نشاط وقوة وجمال ، يعيش فى الدنيا عيشة كفاح وانتصار ... مات فجأة ميتة بلهاء ! ... بعد أن قهر المرض والضجر والخمول : وقد خيل إليه أنه قهر الموت ولو إلى حين .

وكان وحيدها ... رأته ينمو أمامها ويترعرع ... من عود صغير لدن ، إلى جذع كبير قوى يحمل فوقه الأغصان المورقة المحملة بأطيب الثمار . وكان عماد بيتها ، ترى فيه جلال الرجولة وجمالها ، فتحيا فى كنفه هانئة البال لا تخشى شيئاً من متاعب الحياة ، فخوراً سعيدة به وبنفسها . ولكنه كان قبل كل شىء « ابنها » ، ذخر أمومتها ومهبط حنانها . فلما مات ألفت الدنيا حولها فارغة لا معنى لهـــا ... ولم لا تكون فارغة وابنها كان الحياة كلها - الحياة التى تزخر بالحركة والنور ؟ ...

وهجرت المنزل الذى كانت تسكنه معه إلى بيت خرب نازح عن العمران . وآلت على نفسها ألا تبرحه إلا محمولة على الأعناق ،

حيث تنعم بالراحة الأبدية بجواره ... وكان حزنها فى بادىء الأمر يستثير الشفقة فى القلوب ، ولكنه تحول على توالى الأيام إلى حزن قاس بغيض ، وانقلبت فيهـــا تلك الوداعة الباكية إلى سخط ثائر ، ينثر حوله الحسد والكراهية . فكانت تمكث الساعات الطوال صامتة ، جامدة العين : كأنها تمثال من حجر ، ثم تثور دفعة واحدة تسب العالم وتلعنه ، وتعجب للناس كيف يجدون فى الحياة متعة وهناءة ، فتطاوعهم نفسهم على الضحك والمرح ، على حين أنها حرمت كل شىء ، حتى لذة الابتسام ! ...

وكانت تخرج من حجرتها فى ملابسها الفضفاضة السود ، محنية الظهر ، تعتمد على عكازتها ، تطوف بالمنزل ؛ فكأنها شبح من أشباح الليل يجوس خلال المقابر ! ...

* * *

وكانت لهذه « الأم » أخت أصغر منها سنا ، تسكن الصعيد مع زوجها . ولم تكن الأختان على وفاق كامل ، وكانتا لا تتزاوران إلا لماما . فنى يوم من الأيام ، بينما كانت الأم جالسة فى حجرتها ، تمرض همومها ، إذ هبطت عليها أختها تزورها ؛ وكانت مقابلة فاترة أعقبها صمت ثقيل . وجلست « الأم » فى مكانها ، لا تتحرك ، تنظر إلى الفضاء أمامها وهى تسائل نفسها عما دعا أختها لزيارتها .

أجاءت تعزيها الآن ، وقد أهملت واجب التعزية يوم مات فقيدها ؟ . . . أم جاءت تشمت بها ، وتسخر من مصابها ؟ . . .

وأخيرا ، تكلمت الأخت الصغرى ، فقالت :

« لقد أبطأت فى تعزيتى لك ، ولكن لم يكن ذلك عن قصد ، كنت طريحة الفراش - بعد الولادة - أجالد الموت أياما متواصلة فى يأس كبير . وقد مر على وقت فقدت فيه وعيى حتى ظن الذين حولى أنه لم يبق لى فى الدنيا إلا بضع ساعات . ولكن شاء القدر أن أحيا ويحيا معى طفلى . . . »

وأشارت إلى لفيفة فى حجرها ، وهزتها برفق ، فتحركت اللفيفة ، وانبعث منها صوت ضعيف . ولم تكن « الأم » حتى هذه الساعة قد أعارت هذه اللفيفة شيئا من اهتمامها ، فلما سمعت الصوت التفتت إليها ، وبدأت تتفحصها بشىء من الفضول .

وعادت الأخت الصغرى تتم كلامها ، فجعلت تروى لأختها دقائق مرضها وعسر ولادتها ، و « الأم » صامتة مشغولة عن حديثها المستفيض بالنظر إلى الطفل ومراقبته ، فرأته قد استطاع بحركات يديه أن يكشف النقاب عن وجهه . وكان وجها صغيرا طلق الملامح ، يدور بعينيه البراقتين حوله فى حيرة وتطلع . وقد بهره انعكاس الضوء اللامع على مختلف الأشياء ، وشغله تباين الأصوات .

وكان أحيانا ينهش ثم يعبس ، وتارة يضحك ثم يبكى ، ويداه وقدماه فى حركة دائبة .

وطال حديث الأخت ، و « الأم » ما زالت غارقة فى صمتها وهى فى شغل عن كل شىء حولها بما تراقب من ابن أختها الصغير ، تلك الظاهرة الحية الجديدة التى دخلت هـــذا المكان الخرب الماجع لتشعره بأن فى الحياة تجددا ونشاطا . وكان الطفل وهو ماض فى مناغاته ، يتعالى بضحكته ويصيح بيكائه ، ويضرب الهواء بيديه ورجليه ، يريد أن يثبت لهذه العجوز التى طحنتها السنون والأحزان ، أنه ـ على الرغم من ضآلة جسمه ـ مخلوق عظيم . إنه الحياة مصغرة تكمن فيه ضجتها وقوتها وبهجتها ! . . .

وكانت « الأم » تنظر إليه فترى فيه صفحة من صفحات شبابهـــا ، صفحة زاخرة بشتى الذكريات والصور المحبوبة . وتحولت نظراتها إليه من نظرات فضول عابرة إلى نظرات شغف عميق ، وأحست عاطفة جديدة تدب فى قلبها ! . .

ولاحظت الأخت الصغرى أن أختها الكبرى ما زالت صامتة ، لاتوليها طرفا من عنايتها ، فرأت أن تختصر الزيارة ، وتغادر البيت . وتحركت تبغى القيام ، فوجدت بللا فى ثيابها ، فصاحت بوليدها تنهره ، وبكى الطفل محتجا ، فما لبثت « الأم » أن

أقبلت على أختها ، وبسطت ذراعيها ، وقالت :

« ناولينى إياه ... دعينى أغير لفائفه ! ... »

وأخذت الطفل من حِجْر أختها ، وجعلت تهشهشه فاطمأن ، ونظر إليها محلقا : كأنه يحاول أن يستطلع أمرها ! ... وما إن شعر بيديها تضمانه إلى صدرها حتى ابتسم لها ، فابتسمت له وقبلته . وكانت هذه أول ابتسامة عرفها وجهها منذ أن قضى فقيدها نحبه ! ...

وهرعت بالطفل إلى حجرة نومها ، فأرقدته على سريرها ، وأخرجت له من خزانة ملابسها لفائف قديمة كانت لابنها الراحل فى طفولته ، وقد احتفظت بها على سبيل الذكرى . ثم شرعت تستبدلها بلفائفه المبللة : ومضت تدور به فى الحجرة ، وهى تلاطفه وتناغيه ، حتى أطبق جفنيه ونام .

ودخلت الأخت فى هذه اللحظة تستبطىء أختها ، فأشارت لها « الأم » إشارة السكون ، وهمست قائلة :

« إنه نائم ! ... »

* * *

ومكثت الأخت الصغرى فى ضيافة أختها الكبرى أسبوعين كاملين قضتهما « الأم » بجانب الطفل ، تُعنَى به وتُدَلِّله . ونشطت للعمل ، وتفتحت شهيتها للطعام ، فاستقام عودها ، وتورد وجهها .

وكانت تخرج إلى باب بيتها تستوقف المارة تحدثهم ، وقد يماجنونها فتماجنهم ، ويطلب منها بعضهم الإحسان فلا تبخل عليه به ، وانقلب المنزل الخرب الهاجع البغيض منزلا عامرا يقظا ، كله حرارة ونور . . .

* * *

وبعد انقضاء الأسبوعين ، أعدت الأخت الصغرى عدتها للرحيل . ورافقتها أختها الكبرى إلى الباب لتوديعها . وكانت تسير صامتة بطيئة الخطا ... وحينما قبلت أختها وانحنت على الطفل لتقبله رأته يبتسم ، ويمد يديه نحوها ، فأخذته بين ذراعيها فى لهفة ، وضمته إلى صدرها واحتضنته ، وكأنها تحاول إخفاءه تحت مُطرفها ! . . .

وأخيرا رفعت عينيها المخضلتين بالدموع نحو أختها ، وقالت لها فى ضراعة واسترحام :

« ألست يا أختاه فى حاجه إلى من يقـــوم لك بخدمة طفلك ؟ . . . »

أبُو عَرَب

فى خيمة حقيرة من الوبَر ، قريبة من ضيعة « عماد بك » يعيش « سليمان ويدء » وزوجته ، وأولاده . وهم قوم من الأعراب الرحّل ، يرتزقون من تربية الأغنام ، وينتقلون بها من مكان إلى مكان ، طلبا للمرعى . و « سليمان » هذا يسميه الناس « أبو عرب » ؛ احتراما له ، وخشية منه . وهو رجل عملاق الجسم ، عريض المنكبين ، له وجه جاف مشدود الجلدة ، إذا سار ملتحفا بطرفه الأبيض الكبير ، خلته ناقة تتهادى فى سيرها . وإذا سمعته يغنى غناءه ذا الروىّ الواحد ، وهو يدخن الطباق فى قصبته - خيل إليك أنك على مقربة من ذئب يعوى . سريع الغضب ؛ إذا استفزه أحد هاج هياج الثور الوحشى . سريع الرضا ، إذا لوطف أصبح كالحمَل الوديع ، كله بشاشة وإخلاص .

يحب أولاده الستة حبا عظيما ، فكأنه أم رءوم تغمرهم بحنانها الدائم . ولكن « ذهب » ، فى قلبه مكانة أحد أولاده ، فقد التقطه من الطريق رضيعا ، يكاد يهلك من الجوع ، وآواه وعُنِىَ به حتى

تسير وترعرع . وأصبح اليوم حامي قطيعه ، وحارس خيمته . وهو كلب أسود غزير الشعر ، مخيف الهيئة ، تأثرت أخلاقه بأخلاق سيده ، فاكتسب منه العنف في مواطن العنف ، والحلم حيث يجب الحلم .

وكان « عماد بك » صاحب الضيعة يقيم مع زوجته وابنه الوحيد « حامد » في بيته القديم الذى يسميه الفلاحون « بالقصر » . و « حامد » غلام في العاشرة مدلل ، محبوب من والديه حبا يقرب من العبادة . يقضي وقته مع خادمه « مبروك » يصطادان العصافير والسمك ، أو يلعبان على التلال القائمة على حافة الترعة ؛ يقذفان الكلاب بالحصى والحجارة . وقد قامت بينه وبين « ذهب » خصومة كبيرة ، نشأت من تحرش الغلام بالكلب ، فأضمر كل منهما لصاحبه العداوة ، فإذا أحس « ذهب » وجود « حامد » – ولو على مسافة بعيدة منه – نشر أذنيه باهتمام . وجعل يشم الهواء وهو ينظر إلى جهة الغلام نظرة شزراء مكشرا عن أنيابه متحفزا للهجوم ، ثم يبدأ ينبح نباحا عاليا . وإذا لمح « حامد » « ذهبا » – وكان في رفقه من أتباعه – أمطر الكلب وابلا من الحجارة ، واحتمى بمن معه إذا هجم الكلب عليه .

وخرج «حامد» ذات يوم ومعه «مبروك» وقصد التلال يلعبان

فوقها على عادتهما . وكانا وحيدين فى هذا الوقت . واتفق أن جاء «ذهب» ليشرب من الترعة ، وبينما هو منهمك فى الشراب إذ رماه حامد بحجر أدمى رأسه . فقفز الكلب متنمرا يبحث عن الجانى ، وقد أحس أنه لن يكون غير «حامد» وكان «حامد» محتميا مع خادمه فوق تل عال صعب المرتقى . وعرف الكلب مكان الغلام ، فهجم صاعدا فى التل وهو ينبح نباحا جافا متقطعا ، غير مبال بوابل الحجارة ينهال عليه بشدة. وأحس الغلام الخطر ، فوهنت عزيمته ، وتخاذلت قواه ، وجعل يصيح بصوت مخنوق يستنجد بـ«مبروك» .. ولكن «مبروك» أطلق ساقيه للريح ناجيا بنفسه ، ووجد «ذهب» الميدان أمامه خاليا ، وقد زاده هذا الانتصار قوة وإقداما، وأوشك أن يصل إلى قمة التل ، ولم يعد يفصله عن الغلام غير مسافة قصيرة . ورأى «حامد» الكلب يقترب ، وعيناه تقدحان شررا، وشعره قائم كالشوك، فارتجف، ولكنه أحس بغتة قوة غريبة تحل فيه ، فوقف مستبسلا وقفة الجندى ساعة الخطر . ووقف الكلب أيضا يحدج عدوه بشرر عينه وهو يأخذ أهبته لهجمة فاصلة . ومضت لحظة ، والعدوان واقفان وجها لوجه لا يتحركان ، كأنهما تمثالان أودع فيهما المثال أقوى معانى التحفز للشر . وكان أن هجم الكلب هجمته الأخيرة، بيد أن الغلام عاجله بحجر شج رأسه ، وترنح «ذهب» ، ثم نكص على

عقبيه وهو يحاول النهوض والهجوم عودا على بدء ، وقد بدأ الدم الفائر يسيل على وجهه ويسد ستاراً أحمر أمام عينيه . واختل توازنه، فانقلب يتمرغ على التل متدحرجا من أعلاه إلى أسفله .. هناك سكنت حركته سكونها الأخير . وحدق الغلام ذاهلا في جثة الكلب، ثم أخذ يتتبع بنظره طريق الدم المرسوم على التل من قمته إلى أصله فخاله بحراً من الدماء أو طريقا من اللهب . وشعر بتخاذل مفاجيء، فجلس على الأرض يرتجف ، وعلت وجهه صفرة الأموات .

* * *

وسمع « أبو عرب » ندبا وعويلا منبعثين من خيمته ، وهو عائد إليها ، فهاله الأمر وتوقع مصابا ، ودخل الخيمة في عجلة وهو يسأل : ما الخبر ؟ . . . فسكت الجمع وأطرقوا . ودار « أبو عرب » بنظره على من حضر ، فوجد أهله لم يغب منهم أحد ، فخرج إلى حيث قطيعه يرعى، فلم يجد نقصا أصابه ، ولكنه أدرك أن « ذهبا » لم يخف لاستقباله على مألوف عادته ، فعاد إلى الخيمة وصاح في الجمع :

« أين « ذهب » ؟ » . . .

فلم يجبه أحد . . . فقال :

« إذن هو الذى تندبونه ؟ ! » . . .

فأومأ إليه أحد أولاده بنعم . فسأل :

« ولكن كيف مات ؟ أمقتولا ، أم حتف أنفه ؟ »

فتقدمت إليه زوجته فى هوادة وأخذت تروى له حادثة مصرع الكلب ، وهو يستمع إليها راجيا . ثم مالبث أن اربدّ وجهه رويدا ؛ فما إن أتمت كلامها ، حتى صرخ قائلا :

« أقسم بتربة أبى ثلاثا لأقتلنه ، وبمثل الطريقة التى قتل بها « ذهب » ! . . .

* * *

ومضت بضعة أشهر ، ونسى الناس حادثة الكلب . وأخذ « أبو عرب » يحوم حول القصر فى الخفاء . كلما جن الليل، وانتشر على الضيعة الصمت والسبات ؛ كما يحوم الذئب حول فريسته المطمئنة .

وفى ليلة خرج من خيمته ، ووجهته قصر «عماد بك»، وهو ملثم بطرفه الكبير ، يحمل فى صدره طائفة من الأحجار المسنونة كانت تثقل خطاه فى سيره . وسار متسللا بحذر . ولما دنا من السور اعتلاه بمهارة ، وهبط إلى الحديقة فى خفة الهرة ، وتسلق شجرة كثة الأغصان ، وكمن بين فروعها . ومن ثم جعل يراقب حجرة الغلام بعينى الصقر الجشع . وكانت الشجرة على مقربة من نافذة الحجرة ...

ومضت ساعة ، و«حامد» يدخل الحجرة لاعبا ؛ ثم يتركها إلى

ردهة المنزل، لا يستقر له قرار فى مكان واحد ، فجمل «أبو عرب»
يداعب الأحجار فى قلق .

وأخيرا جاءت الأم بابنها وحملته إلى السرير ، ووضعته فيه ، ثم
أشارت له أن ينام ، فأمسك الغلام برقبتها وانهال عليها يقبلها
ويحتضنها ويهمس فى أذنها ، فأخذته بين ذراعيها وسارت به تضمه
وتقبله ، وتطيل النظر إليه فى حنو وعبادة . وكانت إذا ما انتهت مرة
عادت تحتضنه وتقبله مرة أخرى . . .

واعتدل «أبو عرب» فى جلسته ، وجعل يراقبهما باهتمام ، وراحت
الأم تلاعب طفلها فى شغف ، وتصغى إلى ضحكاته المرحة الساذجة
كما يصغى الفنان إلى أشهى ألحانه وأغلاها . ثم قامت وهى محتضنة
إياه ، وأخذت تطوف الحجرة بخطا هادئة ، وتغنى له بصوت حنون ،
والطفل متعلق برقبتها مغمض العينين فى طمأنينة عذبة ، يردد أغانيها
ويستزيدها ...

واعترى «أبا عرب» وجوم غريب وأحس الضيق يغزو صدره
وسقط من يده حجر إلى الأرض دون أن يشعر ... وبعد هنيهة ،
وقد أحست الأم أن وحيدها قد نام اقتربت فى سكون نحو السرير
وأرقدته عليه ، ثم غطته وطبعت على جبينه قبلة هادئة ، وخرجت
على أطراف أصابعها ... ونظر «أبو عرب» طويلا إلى الطفل

وهو نائم مشرق الوجه هدوءا وغبطة ، كأنه مَلَك صغير ، فابتسم مضطربا كأنه يقابل ابتسامة الطفل بمثلها .

وبغتة شعر كأن خنجرا يطعنه فى قلبه ، فهبط إلى الأرض مسرعا ، وأخذ يعدو فى الطريق عائدا إلى خيمته ، يمتلىء اشمئزازا وكرها لنفسه ... وما إن وصل إلى الخيمة ، حتى هرع إلى ولده ، وكان فى مثل سن « حامد » ، وأخذه بين ذراعيه وجعل يضمه ويقبله فى شغف ، والدموع تسح من عينيه ! . . .

العـــودة

لأسرة « الحوامدى » ضيعة بالقرب من « بنها » يتوسطها منزل حقير قديم ، إذا وزن بدور الفلاحين ظهر كبيرا فخما . تقيم به امرأة ارتبطت شخصيتها وحياتها به ، فأصبحت كأنها جزء منه لا ينفصل ، هى : « أم زيّان » العجّانة التى تسكن الفرن ، وتقوم بحراسة المنزل وتنظيفه . امرأة مجهولة العمر ، قصيرة القامة بجسم نحيف ووجه صغير مكسو بالتجاعيد ، نشيطة فى الخدمة ، لا يهدأ لها قرار . تراها أمام الفرن ، تحرك الأرغفة ، وفى ركن الدواجن تطعم الدجاج والإوز ، وفى الزريبة تحلب الجاموسة رائحة غادية فى صحن الدار ، وعلى رأسها جرّتها التاريخية ، تحمل المـــاء لملء الأزيار ... وهى فى مشيتها تسير منتصبة القامة ، مرفوعة الرأس ، فى خفة بنت العشرين . وتهز يدها اليمنى إلى الأمام وإلى الخلف ؛ كأنها جندى يسير فى حفلة عرض .

وقديما كان « لأم زيان » دار خاصة ، تعج بالأطفال ، وزوج مجدّ طيب ، يعمل لرفاهتها وسعادتها ، فكانت تعيش سيدة بيتها ، لا تخدم إلا زوجها وأولادها . ولكن ما هاما لم يدم طويلا ؛ إذ

ناصبها الدهر العداء ، فحرمها زوجها ، عائلها وحامى ذمارها . فكانت فاجعة تحملتها بصبر عظيم ، وعكفت منذ ذلك الحين على العمل ، فاشتغلت أجيرة فى البيوت وفى الحقول ، واشتغل معها بناتها وصبيانها الكبار ؛ ليساعدوها على العيش ، ولكنها ـ لعظم شقائها ـ فقدتهم جميعا واحدا بعد آخر ، إلى ابنة فى الثالثة عشرة أبقاها لها الموت بضع سنين ، حتى إذا ما تزوجت ، وأعقبت « الغالى » عاجلها القضاء ، كإخوانها وأخواتها من قبل . وهكذا لم يبق « لأم زيان » من أسرتها إلا ذلك الحفيد الصغير الذى تركه أبوه فى عهدتها ؛ ليتفرغ هو إلى عمله وزوجته الجديدة . والتحقت « أم زيان » من ذلك الوقت بأسرة « الحوامدى » ، فانتقلت هى وحفيدها « الغالى » إلى حجرة الفرن ؛ إذ اتخذتها مسكنا لها .

وشب « الغالى » وترعرع فى أرجاء الفرن ، فنام على العشب اليابس والحَبّ ، وحبا على الأرض الصلبة واستنشق منذ نعومة أظافره رائحة العجين والخبز ، واكتسبت بشرته لونا نحاسيا براقا كلون الأرغفة الساخنة . وكم من مرة — وهو صغير — دفعه فضول الطفولة إلى ولوج باب الفرن ؛ ليتعرف كنه ذلك القرص الأحمر الملتهب ، الذى يتأجج فى الداخل ، فانتشلته جدته وهو على مقربة من ألسنة النار ، قبل أن يغدو طعمة لها ! ...

وكثيرا ما غمس يديه فى المعجن ، واطلخ وجهه بالعجين ، أو هجم على الأرغفة ، وهى خارجة من النار ، فزق منها ما استطاع أن يمزق ، واكتوت أصابعه بحرها ، ثم يجلس بعد ذلك ينتحب ويبرد يديه بالماء . وعلى الجملة كان « الغالى » شيطانا من شياطين الإنس ، قد ولى نفسه حاكما مستبدا يعيث فسادا فى مملكة الدقيق والنار !...
وقد وهبته جدته عطفها كاملا ، وأورثته حبها القديم لزوجهـــا وأولادها الراحلين : بل حبها للحياة نفسها ؛ إذ كانت ترى فيـه مناط هنائها ، وغاية أملها ، لا تعيش فى الحياة إلا من أجله ...

و « لأم زيان » صبر واستسلام عجيب ، يكاد يكون من خوارق الطبيعة الإنسانية ، مع ما أصيبت به من أرزاء فاجعة لا يرى على وجهها عبوس اليأس ، ولا ثورة السخط ، ولا تسمع من فمها كلمة شكاية أو ملل من الحياة . بل هناك بِشْر دائم طبيعى متألق فى صفاء عينيها المكحلتين ، هو بشر الطمأنينة المستقرة فى قلبها . ولا يذكر إنسان أنه مر عليها ولم يشاهد تلك الابتسامة الخالدة مرتسمة على فمها ، تحاول دائما أن تغطيها بذيل خمارها . وإذا رغب أحد فى حديثها وسألها قائلا :

« كيف حالك يا « أم زيان » ؟ ! ... »

أجابته بصوتها الهادىء الوقور إجابتها التى لا تتغير :

« ألف حمد وألف شكر لله !... كل شيء طيب في الدنيا ! . »

وكثيرا مايزورها أفراد أسرة « الحوامدي » في « مستعمرتها » فيجلسون بجوارها أمام الفرن ، يراقبونها وهي تحرك الأرغفة بالمحراك الحديدي ، أو يدخلون معها كن الدواجن يشاهدونها، وهي تعجن النخالة وفتات الخبز للطيور ، فيستمعون إليها وهي تروى لهم أشهى القصص وأطيب النوادر والأخبار . أما « الغالى » فحولها كالكلب الأمين ، يروح ويجيء خلفها أينما ذهبت وكثيرا مايتشبث بذلاذل ثوبها إذا رآها تكثر من التنقل ، خوفا من أن يفقدها . وإذا أرادت أن تتخلص منه للتفرغ لعملها، صنعت له حصانا من أعواد الذرة الجافة ، يركبه ويجرى به في صحن الدار فرحا .

ولما « كبر الغالى » تجرأ على الخروج من « المستعمرة » بمفرده فذهب مع رفقائه الصغار على الأكوام ، وركب الحمير الطليقة ، وهي تعجن النخالة وفتات الخبز للطيور ، فيستمعون بشغف إليها وهي عائدة إلى حظائرها . وقصد زاوية الصلاة في الهجير ليعاكس النائمين من عباد الله الصالحين وخرج إلى الحقول يرقص ويردد مع فتيات الضيعة أغنيتهن المشهورة :

« ياعود الحشيش يا اخضر ، يامزرع يامالى الغيطان ياعنى ! ... »

وكم انطلقت « أم زيان » إلى الحقول تبحث عنه ، حتى إذا

ما عثرت عليه اقتادته إلى وكرها ، وهو يصرخ متمردا ، ثم لاطفته بعود صغير من قصب السكر ، تشغله طوال الوقت بمصه . . .

ولما اكتمل له من العمر سبع سنوات ، كان يرافق سادته الصغار من أسرة « الحوامدى » إلى الحقول ، فيشاركهم فى أكل البطيخ والخيار . وإذا أزمعوا نزهة إلى القرى المجاورة ، وركبوا الحمير لهذا الغرض ، جرى خلفهم بعصاه يحث بها الدواب على السير .

وكان « الغالى » لا يرى أباه إلا فى المواسم والأعياد ؛ إذ كان أبوه قد انتقل بأسرته الجديدة إلى بلدة بعيدة عن ضيعة « الحوامدى » وجد فيها ربحا أوفر ! . . .

* * *

وحدث أن حل الأب الضيعة على غير ميعاد ، ولما سألته « أم زيان » عن سبب حضوره — وكانت قد أوجست خيفة منه — أخبرها بأنه يريد أخذ ابنه ليرسله إلى « القاهرة » خادما فى بيت أسرة غنية ، فقد رأى أن الفلاحة فى الريف ليست ميدان الكسب الموفر لأبناء هذا العصر . فهناك فى « المدينة » ينشأ الطفل وأمامه ألف مهنة يختار منها ما يوافقه . هذا فضلا عن حياة الرفاهية التى يتنعم بها أهل المدن . فقابلت « أم زيان » حديث الأب بالاعتراض وتوسلت إليه أن يبق حفيدها . فلم يعبأ بكلامها ، وأوضح لها فى

شدة أنها إذا ما نمت فى أخذ ابنه قضت على مستقبله قضاء مبرما .
وواجبها الآن أن تكتم شفقتها فى سبيل هناء حفيدها ، وأخذ يحدثها
حديثا طويلا فى وصف تلك الحياة الرغدة التى سوف يحياها « الغالى »
فى « المدينة » ، وفيما ينتظره من مستقبل باهر . فلم تجد المرأة
لديها حجة تعترض بها عليه ، وأذعنت لحكم القضاء صاغرة ، كما
أذعنت له من قبل . ولكنها بعد صمت مضطرب سألت الأب قائلة :
وهل يغيب عنى طويلا ؟ ...

— سوف يجىء ليراك كل عام ، ويقضى العيد معك ! . . .

— وهل تظن أنه يفلح فى « المدينة » ؟ . . .

— كل الفلاح ! سوف يعود إليك بكسوته الإفرنجية وطربوشه
المائل وحذائه اللامع . سوف يعود إليك فتى رشيقا من أهل المدن
لا فلاحا جلفا من أهل القرى ... سوف يأتى إلينا محملا بالنقود والهدايا .

وتخيلت « أم زيان » فى تلك اللحظة حفيدها « الغالى » فى
الحلة الأفرنجية الأنيقة ، والطربوش المائل على فوده ، والحذاء
اللامع فى قدميه ، ممتطيا صهوة البغلة ، وخلفه غلام يجرى بالعصا ،
فلمعت عيناها بدموع الفرح ، ولكنها كانت تشعر فى الوقت نفسه
أنهم ينتزعون منها جزءا لا ينفصل عن قلبها . فأخذت تبكى وتشهق
وهى لا تعرف : أتبكى فرحا لمستقبل « الغالى » أم حزنا على فراقه ؟! ...

وتركها بعد ما وعدها بالرجوع بعد أيام لأخذ ابنه ، فدخلت « أم زيان » حجرة الفرن ، وأقفلت بابها عليها ، وأسندت ذقنها بيديها ، وتاهت فى أحلام شتى ، ودموعها تفيض على وجهها .

وفى اليوم التالى خرجت قاصدة السوق ، وعادت منه برزمة من المنسوجات شرعت تفصيلها وتخيطها جلابيب وقلانس « للغالى » ، وكانت تسهر الليل أمام مصباحها بخيط ، وفى حجرها الغلام تهزه وتغنى له أغانى المستقبل البهيجة ، معددة له صفاته حينما يكون سيدا كبيرا ، له شارب غزير مفتول كشوارب الحكام ، وطربوش أحمر زاه كطرابيش الأمراء ، يهتز زره فى الهواء هزة الخيلاء ، وحذاء ذو صرير عال كأحذية الجنود يسمع صوته من بعيد . وكانت تنظر إليه نظرات طويلة عميقة ، ثم تنهال عليه تقبيلا وضما حتى تزعجه ، فيصحو صارخا من النوم ، فتعيده إلى حجرها ، وتلاطفه فى سكون بهزاتها الرفيقة ، تستأنف غناءها له بصوت كله نواح وشجن .

وأخيرا سافر « الغالى » مع والده إلى « القاهرة » ، وبقيت « أم زيان » منفردة فى حجرة الفرن ، ومن الغريب أنها عند وداعها لحفيدها لم تذرف دمعة ، ولم يظهر على وجهها أى اضطراب ، بل كانت تضاحكه وتلاعبه ببشاشة ، وتروى له مختلفه

الأقاصيص ، ولكنها لما عادت إلى وكرها حبست نفسها فيه أسبوعاً كاملا ، خرجت بعد نهايته بوجه شاحب ، يشبه وجه من دفن ثم خرج من القبر حيا ! . . .

* * *

ودار دولاب الحياة دوره المعتاد ، فعادت « أم زيان » إلى سابق عملها أمام الفرن تعجن وتخبز ، وفى كنّ الدجاج تقدم لرعيّتها الطعام ، وفى حظيرة البهائم تحلب البقر وتصنع الجبن . ورجعت إليها بشاشتها ، وظهرت على فمها ابتسامتها ، وأخذت تسير مهرولة فى فناء الدار كسابق عهدها ، تشتغل بنشاط واهتمام ، إلا أن قامتها انحنت قليلا ، وزادت فى وجهها التجاعيد ! . . .

فإذا ما جن الليل ، دخلت وكرها ، وأمضت الساعات جالسة أمام الفرن ، ينير وجهها بصبص من نار خامدة ، وهى تحدث « الغالى » متخيلة أنه معها ، تروى له النوادر والقصص ، وتسأله عما يفعل ، وكم يكسب ، وهل لبس الكسوة ، ووضع الطربوش المائل ؟ ... أخيرا تأتى بجلباب من جلابيبه وتبسطه فى حجرها ، ثم تهزه بحنان ، وتبدأ تغنى له أغانى المستقبل الزاهر ، ودموعها تنهمر من مآقيها .

ومضت السنون ، وكرت الأعياد ، و « أم زيان » صابرة

تنتظر عودة « الغالى » . وكانت تخيط له الملابس وتجمع له النقود وتشترى له الحلوى التى يحبها ، ثم تذهب بكل هذا إلى أبيه ليوصله إليه ، فيأخذ الأب هذه الهدايا الثمينة، ويقسمها بينه وبين أفراد أسرته.

وإذا سمعتْ أن شخصاً أتى من « المدينة » هرعت إليه ، وسألته عن « الغالى » فيجيبها : إنه على أحسن حال صحة وسعادة ، مع أنه لم يرَ « الغالى » ظلا فى حياته . وكانت أحيانا تتخيل أنه سيرجع إليها بعد أيام معدودة ، وتقول : إن قلبها أنبأها بذلك وتتمنّين اليوم الذى يصل فيه ، فتجهز له الملابس ، وتصنع له الفطير ، وتجمع له أعواد الذرة ، ليجعل منها خيولا مطهمة . وتطلب من رئيس خدم الدواب أن ترسلوا البغلة « للغالى » على المحطة ، ومعها صبى يحمل العصـــا ! . .

واستمرت « أم زيان » على هذا الحال عشر سنين كاملة : تحيا حياة الأحلام . . .

وأخيرا تحقق الحلم ، وجاء الأب يعلم الجدّة بأن حفيدها « الغالى » سيحضر صباح الغد ، فقابلت الخبر بذهول كاد يفقدها الصواب . ولكن سرعان ما استعادت رباطة جأشها ، وانحلت عقدة لسانها عن سيل منهمر من الأسئلة ، لم يَدْرِ الرجل عن أيهـــا يجيب ! . . .

وهرعت « أم زيان » من ساعتها إلى الفرن ، فجهزت لحفيدها طعاما شهيا ، وانتقت له من بين أعواد الذرة - التي كان يلعب بأمثالها - عودا متينا أعدته له فرسا مُسْرَجا . ثم اغتسلت وتكحلت ولبست الجديد من الثياب ، وأمضت الليل كله ساهرة تدور في الغرفة لا تعرف ماذا تفعل ، مع شعورها بأن هناك عملا كبيرا عليها أن تؤديه . ثم قصدت قبيل الفجر إلى الفناء ، وجلست أمام بابه مترقبة ظهور « الغالي » على بغلته المطهمة . ولكن النوم عاجلها ، فلم تستفق إلا على حركة البهائم وهي خارجة إلى الحقل ! . .

وأخيرا ظهر أمامها الأب وبجواره فتى في السابعة عشرة ، له وجه نحاسي كامد ، خشن البشرة ، مملوء ببثور الشباب ، يلبس الجلبـــاب والمعطف والطربوش ، وله شارب طرير . فتقدمت « أم زيان » في سكون ، وسألت الأب قائلة :

« ألم يحضر « الغالي » يابني ؟ . . . »

فالتفت إليها ضاحكا ، وقال وقد أشار إلى الفتى :

« ومن يكون إذن هذا ؟ . . . »

فرفعت « أم زيان » رأسها ، وحملقت في الفتى طويلا ، والفتى أمامها يبتسم ابتسامة الخيلاء ، ودنت منه وهي تسائل نفسها ، بصوت مرتجف ، وعينين مختلجتين :

« أيكون هذا هو « الغالى » ؟ هل هذا ممكن ؟ . . . »

فانطلق الأب وابنه يتضاحكان ! . . .

وتقدمت « أم زيان » نحو الفتى ، واحتضنته طويلا ودموعها تتسايل على وجهها ! . . . ومن ثمّ عادت به إلى حجرة الفرن وقدمت له الطعام والحلو . وكانت تقص عليه أحداث حياتها منذ فارقها ، وكيف كانت تفكر فيه دائما ، وكيف كانت تترقب كل عيد أوبته لزيارتها . ثم جعلت تسرد له حديث الطيور والبهائم : ما جدّ منها وما اختفى . ثم استعادت أمامه ذكريات الماضى ، وذكرته بما كان له فى حداثته من صنوف الملاعبات والمماكسات !! . . . وفى هذه اللحظة وقع نظرها على الحصان المصنوع من أعواد الذرة . فتراجعت ، ونظرت إلى الفتى فإذا به ينظر بتأفف واشمئزاز إلى المكان الذى يجلس فيه ، وإذا هو قليل الكلام ، له صوت خشن غليظ ، وحركات شاذة جافة . فحارت « أم زيان » فى أمره : كيف ترضيه وتدخل السرور على قلبه ؟ . . . وقامت مهرولة نحو صندوقها ؛ وبحثت فيه عن شىء يليق أن تقدمه له ، فلم تجد إلا بضعة قروش جمعتها ، فذهبت بها إليه ، ووضعتها فى يده وهى تقول :

« خذ يا « غالى » هذا المبلغ وابسط به نفسك ! . . . »

ففتح الشاب يده وألقى نظرة باردة على النقود . ثم أخذها ووضعها فى جيبه ولم يجب . وبعد قليل قام مستأذنا ، وذهب من فوره إلى الحقل لينشد مع الفتيات والفتيان فى القرية الأغانى الريفية ، تاركا جدته وحيدة فى الفرن تحدث نفسها بخبل قائلة :

« أهذا هو « الغالى » ؟ ... أهذا هو ابنى وحبيبى الصغير ؟ ! ... »

ولم يعد « الغالى » إليها بعد هذه الزيارة ؛ إذ كان يمضى نهاره لاهيا مع رفاقه ، متنقلا بين الحقل وقهوة المحطة حتى إذا أمسى ذهب إلى بيت أبيه فنام .

* * *

وطال انتظار « أم زيان » على غير جدوى ، ويبس الفطير الذى صنعته خاصة له ... ومرت الأيام وهى تسمع « بالغالى » ، ولا تره ..

وبعد حين دخل عليها الأب ، فوجدها أمام الفرن ، محتضنة جلبابا صغيرا من جلابيب حفيدها الطفل ، وعودا جافا من الذرة حصانه القديم - وهى تقبلهما وتبكى . فعجب الرجل لأمرها . وبادرها بقوله :

« أتبكين وقد عاد إليك « الغالى » ؟ . . . »

فرفعت رأسها ونظرت إليه باستسلام ويأس ، وقالت :

« لقد مات « الغالى » من وقت طويل يا بنى . . . مات منذ غادرنا إلى « المدينة » ! . . . »

الشحّاذ!...

قبل سنتين كنت أسكن فى حى الحلمية القديمة ، وكنت أركب «الترام» دائماً من المحطة الواقعة عند رأس حارة فى «شارع القلعة» بالقرب من أحد المطاعم البلدية . وقد تعودت أن أرى فى أثناء انتظارى للترام شحاذاً مبتور الساقين ، يرتدى سترة صفراء قديمة من ستر موظفى الترام ، ويلف على طربوشه خرقة بالية. وكان مرآه يثير شفقتى ، فأعطيه كل يوم نصف قرش وتوثقت بيننا المعرفة ، فكنت أقطع انتظارى بحديث ساذج معه ، عرفت منه أنه كان من عمال شركة ، وأصيب بمرض أضاع له ساقيه ، فاضطر أن يستجدى ليعول أسرته . اختار مكانه هذا بالقرب من المطعم البلدى ، إذ وجده أوفر جدوى من غيره . وكان يراه المارون والمنتظرون جالساً جلسة الخشوع ؛ لا يلح بسؤال على إنسان ، فيخالونه وليّاً صالحاً غارقاً فى تأملاته التى لا تنتهى . ولا أذكر أنى ذهبت مرة إلى محطة «الترام» . فلم أجد صديقى الشحاذ هناك ، وقد تعودت أن أراه فى مكانه لا يتغير له وضع ولا شكل ، كأنه جزء متمم للحائط الذى يستند عليه ، وطالما نظرت إليه مليّاً ، فتخيلته صنماً مهجوراً من

اصنام قدماء المصريين ملقى منذ مئات السنين فى خرائب «الأقصر» يحف به جلال الفن ووقار القدم. وذهبت يوما إلى محطة «الترام» فلم أجد الشحاذ هناك . . . وكانت هذه أول مرة رأيت فيهـــا مكانه خاليا ، فاختلط على الأمر ، وظننت أنى ضللت الطريق ، وقصدت إلى محطة أخرى . ولـكن المطعم البلدى أكد لى خطأ ظنى وسرت جيئة وذهابا أقطع الوقت منتظرا مقدم الترام ، وقد استولى على شيء من الأسف والضيق . واتجهت نحو المطعم ، وسألت صاحبه .

« ألم يحضر « الحاج بيومى » الشحاذ ؟ ... »

ـــ هذا أول يوم تغيّب فيه منذ خمس سنين ... أى منذ إنشاء مطعمى هذا ...

ـــ ألا تعرف السبب ؟ ...

ـــ كلا يا سيدى : مع الأسف ! . . .

وجاء الترام فركبته ، وأمضيت بقية اليوم على مألوف العادة .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى المحطة ، وبى شيء من القلق ، ولـكن لمحت الشحـاذ عن بعد فى مكانه ، غارقا فى تأملاته . فسرى عنى ، ولما اقتربت منه رفع إلى بصره ، وابتسم ابتسامة عارضة ، سرعان ما اختفت ضائعة فى تجاعيد وجهه . ثم طأطأ رأسه من فوره . وقد

لا حظت عليه أنه كان ممتقع الوجه ، عليه مظاهر الإعياء ، فألقيت إليه نصف القرش ، وقلت له :

« لم تجىء أمس يا « حاج بيومى » ؟ » . . .

فأجاب وهو مطأطىء الرأس ، على غير عادته :

« كنت مريضا يا سيدى ! »

وكان فى صوته نغمة حزن ظاهرة ، فقلت :

لقد حُرِمت كسبك بلاريب . . .

ــ إن الله لا يترك عبده . . .

فأخرجت من جيبي قطعة ذات خمسة قروش ، وناولته إياها وأنا أقول :

« ربما تجد فى هذا المبلغ ، ما يعوض لك خسارة الأمس ! . . . »

فرفع إلىّ بصره الحائر ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وتكلم يتلعثم :

« ولكن يا سيدى . . . إنى . . . »

وجاء الترام . فتركت الشحاذ يحدث نفسه بكلامه المختلف المبهم . . .

واختفى الرجل يومين كاملين ، ثم ظهر فى اليوم الثالث . رأيته عن بُعد محتلا مكانه المختار ، فلما خطى تحرك زاحفا بيديه . واختفى فى الحارة . . . أرآنى حقاً فهرب منى ؟ ! . . . هذا ما أدهشنى . ولما

وصلت إلى المحطة ، درت بعيني هنا وهناك ، فلم أر للرجل أثرا .

ومضى أسبوع ، و « الحاج بيومي » الشحاذ يظهر يوما ، ويختفي يوما . وكان كلما لمحني عن بعد مقبلا إلى محطة الترام ، هرب من وجهي . فازدادت حيرتي ودهشتي ؛ ولكني أقنعت نفسي أخيرا بتفاهة الموضوع ، وقلت : لعل الرجل قد أصابه شيء من الخبل . ثم انقطع ظهوره ثلاثة أشهر كاملة ، فكدت أنساه فيها كل النسيان ! ..

وقصدت يوما إلى محطة الترام ، وما كان أشد دهشتي حينما رأيت الرجل عن بُعد في مكانه المعروف ، فناجيت نفسي قائلا : « سوف يهرب مني الآن ! » ، ولكنه لم يفعل ، بل كان يرقب مجيئي بشغف ، فلما وصلت إلى المحطة زحف نحوي ، وصافحني ببشاشة وتهلل ، فعجبت لأمره ، وسلمت عليه سلاما طيبا ، وقلت له :

« لقد ظهرت أخيرا يا « حاج بيومي » ... حقا لقد كانت غيبة طويلة .. »

فأخذ يفرك إحدى يديه بالأخرى ، وهو ينظر إلى الأرض . ثم تكلم قائلا :

كنت أستجدي في مكان آخر ! . .

— أكان أكثر ربحا من هنا ؟ ...

— بل أقل جدا . . .

— وما الذى دعاك إلى ترك محلك إذن ؟ ...

فصمت برهة قليلة ، ثم رفع عينيه البراقتين ، وقال بلهجه الحزم والجـــد :

كنت أهرب منك ياسيدى ...

— إنى لا أفهم مرادك يا « حاج بيومى » ! ...

وجاء الترام ، فهممت أن أركبه ، وقد تيقنت أن الرجل مخبول ، ولكنه أخـذ بطرف سترتى فى لطف ، ورجاء منى فى إلحاح أن أستمع له . فعدت إلى مكانى ، وقد أغرانى حب الاستطلاع بإجابته إلى طلبه . وتكلم « الحاج بيومى » بصوت هادىء رزين ، وهو يداعب لحيته القصيرة ، فقال :

سامحنى إذا كنت قد أسأت إليك ! ...

— لا أشعر بأنك أسأت إلىّ مطلقا ! ...

— بل أجرمت فى حقك ياسيدى ... اسمع حديثى ، ثم احكم علىّ .. . ولكنى أرجو أن تكون قاضيا عادلا ! ... أتذكر حضورك إلى هـــذا المكان بعد الظهر بقليـل منذ أكثر من ثلاثة أشهر ؟ ...

— لا أذكر جيدا ...

— أما أنا فأذكر هـذا اليوم ولا أنساه ؛ وحوادثه لن تفارقنى

ما حييت . كانت الساعة إذ ذاك قرابة الثانية بعد ظهر ، وكنت مستسلما للنعاس ، فجئت ونبهتني بإحسانك اليومي الكريم فاستيقظت وقد رأيتك تسير ذهابا وأوبة ، منتظرا بصبر نافد حضور الترام . وكنت مطأطىء الرأس تتأمل مواطىء قدمك . ثم أخرجت محفظتك وجعلت تقلب طويلا ما فيها من الأوراق ، وأنت تنظر إلى ساعتك مرة بعد أخرى . وأخيرا أخرجت ورقة فجعلت تتفحصها باهتمام . وأقبل الترام فى هذه اللحظة ، فاتجهت نحوه بسرعة ، وعيناك لا تفارقان الورقة . . . »

وهنا توقف « الحاج بيومى » ليسيغ ريقه ويمسح عرقه ثم تكلم بصوت مضطرب متمتما :

« وطويت المحفظة ، وأعدتها إلى جيبك ، ولكن ورقة مالية سقطت منها وحملها الهواء إلىّ . كانت ذات خمسة جنيهات ، فهممت أن أناديك ، ولكن يدى لمست الورقة دون وعى منى ، فشعرت كأن لسانى مسمّر فى حلق . وكنت أراقبك وأنت تركب الترام بعينين زائغتين ، ويدى على الورقة تخفيها عن أعين الناس . ولما تحرك الترام ، وابتعد قليلا شعرت بقوة تدفعنى إلى اللحاق به ، فزحفت باذلا أقصى ما أستطيع من السرعة ، وأنا أناديك وألوّح بيدى ليقفوا الترم . ولكن لم يعبأ بى أحد ، واختفى الترام

فى لحظة ، وجاءنى « المعلم عفيفى » صاحب المطعم ، وقــد سمع صوتى ، وأنا أنادى وأصرخ ، وسألنى عن أمرى فقلت له على الفور : « لقد كنت أطلب الإحسان من شخص ! . . » فنظر إلى متعجبا ، لأنه يعلم أننى لم أحرك لسانى مرة بسؤال . وعاد « المعلم عفيفى » إلى مطعمه ، وسكنت الحركة فى الشارع ، وعدت لا أرى مخلوق . فأخرجت الورقة المالية من جيبى باحتراس ، وتأملتها مليا فى خوف وحذر ، وناجيت نفسى قائلا : سوف نأكل اللحم ، ونتنعم بأطايب الطعام . ولكن يدى ارتعشت ، فأسرعت بإدخال الورقة فى جيبى ، وأنــا أردد قولى بعناد : بل أرد النقود غدا إلى صاحبها . ; مكثت نصف ساعة فريسة الأفكار المتضاربة . ولم أستطع أن ألزم مكانى بقية اليوم ، فرجعت إلى دارى ، فقابلتنى زوجتى وسألتنى عن سبب عودتى مبكرا ، فانتحلت لها عذرا ، وقصدت ركنــا بجوار النافذة ، وأخرجت الورقة من جيبى ، وجعلت أتأملها طويلا ، وأنا أناجى نفسى باختلاط قائلا : سوف نطعم اللحم ، ونتنعم بأطايب المأكولات . . بل إنى سوف أرد النقود إلى صاحبها !.. وأقبل على بنى الصغار يقبلوننى ، وكانت عليهم أسمال بالية ، تبين تحت نتوقها أجسامهم ، فضممتهم إلى صدرى . وبغتة قلت بحرارة : سوف تكتسون غدا بملابس حمر زاهية . فنظروا

إلىّ بعجب وارتياب . وتقدم أكبرهم وقبلني وسألني في رفق :
أحقا سنلبس الملابس الحمر الزاهية ؟ ... فقلت : نعم ، وسوف
تخيطها لكم أمكم . وأعدت كلامي عليهم غير مرة ، حتى اقتنعوا ،
فهبوا فرحين مسرورين ، وأخذوا يرقصون حولي وهم يتصايحون :
سوف نلبس غدا الملابس الحمر الزاهية . ثم أسرعوا إلى أمهم
وكانت أمام الدار ، فزفوا إليها البشرى في ضجة وتهلل ، وقدموا
بها إلىّ فأكدت لها الخبر ، وصحت فيهم قائلا : وستملئون بطونكم
بأشهى الأطعمـــة ، فرددوا قولي في هرج ومرج وأقبلوا علىّ
يستأنفون تقبيلي والتواثب على صدري ؛ فكنت أقبلهم والدموع
تغمر وجهي ... وانقضى اليوم التالي على خير ما نريد . فأكلنا
أشهى الأطعمة ، واكتسى أولادي بالملابس الحمر الزاهية . وفي
اليوم الثالث قصدت إلى مكاني وقابلتك . ولما سألتني عن سبب
غيبتي أخبرتك كذبا بمرضي ، فأعطيتني خمسة القروش إحسانا .
بالله من هذه الخمسة القروش ! ... كانت تلسعني في يدي ، كأنها
عقرب هائجة طائشة . فلم أستطع أن أبقيها في يدي ، ورميتها
جانبا ؛ وغدت من فوري إلى داري وأنا محموم أرتعد ، فتلقاني
أبنائي بملابسهم الحمر ، وأحاطوا بي ، وجعلوا يطوفون حولي ،
فكأنها نار الجحيم تحدق بي . فتخلصت منهم ، وانكفأت إلى ركن

من أركان الحجرة ؛ وجعلت أبكى . وارتاع الأطفال من منظرى، وأخبروا أمهم فجاءت على عجل ، فادعيت لها أنى مريض ، وأنى فى حاجة إلى الراحة .

منذ ذلك اليوم لم يهدأ لى حال ، كانت لدغة الخمسة القروش مازالت تؤلمنى . كنت أرى لهب جهنم يتدلع من أثواب أطفالى، فلم أملك إلا أن أتجنب رؤيتهم، وأحرم نفسى تقبيلهم وضمهم إلى صدرى . وتواصلت عشرة أيام ذقت فيها عذاب الجحيم . وأخيرا اهتديت إلى طريقة كان فيها خلاصى... عزمت على رد نقودك إليك ! . .. وسألت زوجتى عما فضل من المبلغ ، فأخبرتنى أنه لم يبق شىء ، فقد كست نفسها ، وكست الأطفال معها ، وقضت بعض الديون، وخزنت شيئا من المئونة للمنزل . إذن علىّ جمع المال الذى بدّدناه كله . لا بأس !... هذا ما استقر عليه رأيى . ولما كنت قد أقسمت ألا أراك إلا بعد أن أحصل على المال ، فقد هربت إلى مكان بعيد أستجدى فيه . وجاهدت فى الاقتصاد ما استطعت ، فتقشفت فى حياتى فوق تقشفى الدائم، وأخلفت وعودى لأولادى ، وأغضبت زوجتى . ولكنى كنت راضيا عن نفسى ، وبدأت أتذوق حقا طعم الهناء . وكانت ملابس أطفالى الحمر الزاهية لا تخيفنى؛ لأنى كنت أجمع ثمنها لأعيده إليك وها قد جمعته كله ، حرام علىّ حلال لك !...

وأخرج من جيبه صرّة معقودة ، لم يلبث أن حلها ورفعها إلى وهو يقول :

« خذ مالك ياسيدى . خذه وأرحنى أراحك الله ! »

فنظرت إلى الصرة المفتوحة ، فوجدتها خرقة قذرة تحوى جملة كبيرة من قطع النقود المختلفة من المليم إلى الريال ، ورآنى « عم بيومى » أحدق فى الصرة ولا أمد يدى نحوها ، فقال :

« لقد عددت اليوم مافى الصرة ، فوجدت المبلغ كاملا لا ينقص مليما واحدا . خذه عدّه هنا أمامى إذا شئت ! . . .

وكنت مأخوذا بما سمعت ، أنظر بذهول تارة إلى الرجل ، وطورا إلى صرة النقود ، ولا أعرف ماذا أصنع ؟

فنبهنى الرجل بقوله :

« سيدى ! ... إذا لم تأخذ نقودك فسوف أرميها فى البئر . . . سيكون نصيبها العدم . . . خذها وأرحنى أراحك الله »

فمددت يدى ، وتناولت الصرة فى صمت ، ووضعتها فى جيبى ، ثم شددت على يده ، وأنا أغمغم :

« أنت رجل كبير النفس يا « عم بيومى » ! ... »

وسرت مطأطىء الرأس ، وأنا أفكر فيما سمعت وفيما رأيت ! ...

* * *

وكان صديق راوى هذه القصة يحتسى قهوته ويدخن لفافته، فالتفتُّ إليه، وقلت :

« أمثال هذا الرجل قليلون ياصديق ... »

ثم نظرت إلى ساعتى فوجدتها الرابعة، فقلت :

« إن ميعادنا مع صديقنا « سليم » فى منتصف الساعة السادسة . أمامنا متسع من الوقت، أليس عندك ماترويه لى غير هذه القصة ؟ »

فنظر إلى دخان لفافته، وقال :

أذكر حكاية من عهد التلمذة ... أيروقك أن تسمع شيئا يتعلق بذلك العهـــد ؟ ! . . .

— يروقنى جدا ... وماموضوع الحكاية ؟...

— الفطائر العشر ! . . .

— ما شاء الله ! .. هات ما عندك ! ...

فلم يغير صديق جلسته، وكان ينظر دائما إلى دخان لفافته، وبدأ يتكلم قائلا :

« فى يوم من الأيام عاقبنى معلم الحساب أنا وزميلى « رءوف » بحرماننا طعام الغداء - الذى كنا نتناوله فى المدرسة - وقصرنا على الخبز الجاف . وكان من نظام المدرسة أن يدخلوا المعاقبين بالخبز الجاف فى حجرة الطعام نفسها مع بقية الآكلين ، ويقفوهم صفا

بجوار الحائط ، ثم يوزعوا عليهم الأرغفة ليشعروهم بذل الموقف وكان عقاب الخبز الجاف يؤلمني أكثر من أي عقاب آخر ، فكنت أدير ظهري لموائد الآكل مواجها الحائط ، مضربا عن أكل الرغيف ! والتفتّ إلى زميلي « رءوف » ؛ فوجدته يقضم أطراف رغيفه ، ويتبادل هو والآكلون المداعبات الفكهة بين فترة وأخرى ، فملت عليه ، وقلت :

ما رأيك في الذهاب إلى الحلواني بعد خروجنا عصرا من المدرسة لنأكل الفطائر اللذيذة ؟ ...

— هذا ما فكرت فيه أنا أيضا ! . . .

— إننا لم نُحْرَم شيئا كبيرا ... هل نأسف على حساء العدس الكريه الطعم ، أو على طبق الخُضَر المسلوقة ؟ أو على قطعة اللحم النيِّئة ؛ كأنما هي من المطاط ؟ ...

— أو على نقيع المشمش المدود ؟ . . .

وامتلأت في هذه اللحظة خياشيمنا برائحة طيبة ، هبت من الموائد القريبة ، فقضم زميلي رغيفه قضمة جبارة ، وازْدَرَدْتُ أنا ريقي في سكون ... ثم عاودت الكلام فقلت :

سوف آكل عند الحلواني عشر فطائر ... عشر فطائر بتمامها ...

— وهذا ما عزمت عليه أنا أيضا ! ...

وكان العصر ، فخرجت من المدرسة مصطحبا صديقى « رءوفا » ميممَين محل الحلوانى وكنت أشعر بخلو معدتى ودوار رأسى ، فأذكر «شهر رمضان» وتشبثى بالصيام فيه وبعد وقت قصير ، وصلنا وأخذ كل منا صحفة وشوكة ؛ لينتقى الفطائر التى تطيب له . وكان من عادة الحلوانى أن يحاسب العملاء بعد أكلهم ؛ ثقة منه بهم . ورآنى قريبى « مراد » وكان خارجا من المحل ، فنادانى وجعل يحادثنى برهة بجانب الباب ثم ودعنى بعد ماضايقنى ؛ وكاد يزهق روحى . واتجهت نحو « رءوف » فألفيته قد انتهى من أكل فطائره ، ودفع حسابه ، فتناولت فطيرة ، وجعلت ألتهمها بلذة وشغف ، وأدخلت يدى فى جيب صدارى ؛ لأستوثق من وجود نقودى ، وجعلت أعدها قرشا قرشا ، فوجدتها سبعة قروش ، فالتفتُ إلى صديقى ، وقلت :

لا آكل إلا سبع فطائر فقط ! . . .

— ولم ذلك ؟ . . .

— لأنى لا أملك إلا سبعة قروش ! . . .

فنظر إلى بخبث ، وغمز لى بعينه ، وقال بصوت منخفض :

بل يمكنك أن تأكل ما تشاء وتدفع لهم ما تشاء . . .

— ماذا تقصد بذلك ؟ ! . . .

— لاتدقق فى الحساب ! ... إنهم لا يعدون الفطائر التى تأكلها ...

فتوقفت عن أكلى ، ولم أتمم فطيرتى ، إذ شعرت بغصة تسد حلق . . . ووضعت الصحفة جانبا ، وقلت لرفيق بصوت متهدج :

وهل فعلت أنت ذلك ؟ . . .

— طبعا أكلت عشر فطائر ، ودفعت ثمنها أربعة قروش .

فقبضت على ذراعه ، وقلت بغضب :

أنت تفعل ذلك يا « رءوف » ؟ .... اذهب وادفع ما بقى من حسابك . هيّا ! . . .

— أنت أبله ... ليس معى نقود مطلقا ! . . .

ثم تركنى وسار بجوار الباب ، وهو يرمينى بابتسامة كريهة ، فقصدت من فورى إلى أمينة الصندوق ، وقلت لها :

لقد أكلت يا آنسة سبع فطائر ، وهذه سبعة قروش ثمنها . . .

— متشكرة ! . . .

ولما اقتربتُ من الباب ، نظر إلى « رءوف » بخجل وارتباك ، وسألنى قائلا :

ماذا فعلت ؟ ! . . .

فلم أعره نظرى ، وخرجت وأنا أشعر باشمئزاز وتقزز . . .

المهدى المنتظر!!...

« عم متولى » بائع اللب والفول السودانى والحلوى بائع متنقل يعرفه سكان « الحلمية » وما يجاورها من الجهات ، يسير بعمامته البيضاء الطويلة ، وجلبابه الواسع الأكمام ، تعلوه الهيبة ، وقد حمل على ظهره قُفَّته العتيقة ، وهو ينادى معدد للأطفال أصناف بضاعته بلهجة السودانيين ، بصوت أضعفه الفقر والهرم ، إلا أنه لم يزل محتفظا بنبرة الآمر ، فقد نشأ الرجل فى السودان ، وحارب فى صفوف المهديين برتبة قائد فرقة . وقد عاش طول عمره وحيدا ليس له زوجة ولا بنون .

وهو يسكن حجرة صغيرة مظلمة فى عطفة « عبد الله بك » ، لا تحوى من الأثاث غير صندوق عتيق ، وحصير عليه لحاف ووسادة باليان . وعلى الرغم من مظاهر فقره المدقع ، فإن النظافة تحوطه وتحوط كل ما يملكه .

يثوب الرجل إلى بيته مضنى من شدة التعب ، وبعد أن يؤدى فريضة العشاء ، يشعل مصباحه الزيتى الضعيف النور ، ويجلس قبالة صندوقه ، ويخرج منه سيفا قديما ، فيضعه على ركبتيه ، ويسبح فى

تأملاته الطويلة ، مستعدا ذكريات حياته الماضية ، فإذا مامرت على خاطره ذكرى « المهدى » رفع بصره إلى فوق ، وأخذ يدعو الله أن يقرب أيام الرجعة، أيام العودة المنتظرة للمهدى - رافع لواء الدين حيث يحل فى الأرض فيطهرها من فسادها . ثم يخفض بصره . ويمسح لحيته المخضلة بالدموع ، ويأخذ السيف فيقبله بشغف عظيم .

ثم يقوم إلى عشائه ، فإذا مافرغ دخل فراشه ، ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يستغرق فى نوم مطمئن يحلم فيه بماضيه الأغر ، ومستقبله الحافل بعودة المهدى . وفى الفجر يقوم فيؤدى صلاة الصبح حاضرة ، ثم يقرأ فى أوراد « الجنشانى » وكتاب « دلائل الخيرات » . حتى إذا ما أرسلت الشمس أشعتها مخترقة نافذته الضيقة ، قام متمهلا حاملا قفته على ظهره ، ووجهته « الحلمية » ؛ ليبدأ طوافه اليومى المعهود .

وهكذا كانت حالة منذ هبط « القاهرة » لخمسة عشر عاما خلت ولم يغير شيئا من نظام حياته ، هُدمت منازل ، وأقيم غيرها ، ومات أناس ، وكبر أطفال ، « وعم متولى » ولا يعرف من « القاهرة » وضواحيها غير الجهات التى تعوّد أن يطوف بها . له محلات استراحة فى الطريق . هى محطات يتناول فيها طعامه ويجلس فترة . وقد خص اثنتين من هذه المحطات بمعظم أوقات . فراغه فالأولى : مسجد

صغير ، يتناول طعام الغداء بالقرب من بابه ، فإذا أتمه حمد الله طويلا ودخل المسجد فصلى فيه ونام . أما المحطة الثانية فبالقرب من منزل « نور الدين بك » في « السيوفية » يقصدها دائما بعد صلاة المغرب . هناك بجوار باب القصر يجتمع حوله لفيف من بوابى المنازل المجاورة ، وخدم منزل « نور الدين بك » ... فيتحدثون عن الإسلام في غابر مجده ، وكيف حلت به الرزايا . هنا يقوم « عم متولى » مشرق الجبين ، فيروى للجمع حديث « الرجعة المقبلة » بلهجة متزنة مهيبة ، وأسلوب نفاذ قوى ، يأخذ بمجامع القلوب ، فإذا الجمع كله خاشع مبتهج ، يستمع في إقبال وتطلع لذلك الولى الجليل ، وهو يتحدث عن ظهور « المهدى » وتطهير الأرض من مفاسدها ، وعودة الإسلام إلى سالف عظمته . في ذلك الوقت يخرج « نور الدين بك » من باب منزله متوكئا على عصاه الثمينة ، فيتقدم نحو « عم متولى » يحييه ويلاطفه ، ويغدق عليه عطيته ، ثم يفارقه وهو يسعل سعال الأبهة والكبرياء .

ويأتى « إبراهيم بك » — نجل « نور الدين بك » — وهو شاب مهذار لعوب . في السادسة عشرة من عمره — فيقترب من « عم متولى » ويصيح به قائلا :

أما زلت تروى وقائع الحروب وحوادث « المهــــدى »

« عم متولى » ؟ . . .

— أروبها وافتخربها ... لقد كنت قائداً لآلاف عسكرى ! ...

فينهض « إبراهيم بك » ملء فيه ، ثم يعتدل فى وقفته متظاهرا بالخشوع ؛ ويزرر سترته ، ويصلح طربوشه ، ويرفع يمناه إلى رأسه بالتحية العسكرية ، ثم يخرج قرشا من جيبه ويدفعه إلى « عم متولى » قائلا :

« أرجو منك أن تعطينى قليلا من اللب والفول السودانى بقرش صاغ يا « جنرال » !! ... »

* * *

فى عصر يوم من الأيام ذهب « عم متولى » إلى منزل « نور الدين بك » ، فجلس بجوار الباب على عادته ، وأخذت الأطفال تهرع إليه لتشترى من بضاعة كما تفعل دائما ، وانطلق الخدم يفدون إليه من مختلف الجهات ، ويلتفون حوله صفوفا متراصة ، حتى إذا انتظمت حلقة الاجتماع ، وقف « عم متولى » يحدث الجمع حديثه المعهود . وبينما الجمع يستمع مشغوفا بأقواله الساحرة ؛ إذ أقبل « إبراهيم بك » وصاح :

« يا جنرال ! . . . »

فتوقف الخطيب عن الكلام ، وحول الناس نظرهم غاضبين نحو الفتى المهذار ، يستوضحون الأمر . وتقدم « إبراهيم بك » غير

مكترث بمن حوله، وأتم كلامه قائلا :

« . . . والدى يريد أن يراك، فأرجو منك أن تتبعنى ! .. »

فأسف الحفل لهذه المباغتة، وخرج « عم متولى » من الحلقة، حاملا قفته على ظهره، ومشى مشيته الهادئة متجها نحو الباب، بعد أن شيع أتباعه المخلصين بنظرة عطف واعتذار . وتبع « ابراهيم بك » إلى حديقة القصر، واخترقا معا طريقا طويلا ينتهى عند مدخل المنظرة[1] حيث كان « نور الدين بك » ينتظرهما جالسا على مقعده الكبير . فأقبل « عم متولى » مسلما فأجلسه « البك » بجواره على الأرض بعد أن صرف ابنه ومضت فترة صمت صغيرة كان يردد أثناءها « عم متولى » بصوت خافت شكره لله وصلاته على النبى. وأخيرا تكلم « نور الدين بك » فأخبر « عم متولى » بعد مقدمة قصيرة أن السيدة الوقور والدته كثيرا ما سمعت بأخباره وصفاته، فأحبت أن تتعرف إليه، لتستمتع بأحاديثه الدينية الجليلة وتواريخه الشائقة عن الإسلام. فاختلج قلب « عم متولى » سرورا لما علمه من أن شهرته قد اخترقت جدران المنزل، ووصلت الى آذان السيدات ربات الخدور، وقام « نور الدين بك » متجها نحو جناح الحريم، وسار خلفه « عم متولى » واخترق كلاهما ممشى

---

(١) هى المعروفة « بالسلاملك ».

عريضا ، ودهليزاً ضخما ، يوصل إلى حديقة السيدات ، ثم صعدا درجات شرفة مظللة ودخلا ردهة عظيمة لم يكد يطأ « عم متولى » عتبتها حتى سحرته فخامتها ، فامتلأ قلبه بالروعة والخشوع ، إذ أنه لم ير حتى فى قصر « المهدى » قاعة تماثلها اتساعا وفخامة ، وفيما كان « عم متولى » مستغرقا فى دهشته طرق سمعه صوت نسوى ضعيف يرحب به ، فالتفت ناحيته فألفى ربة القصر جالسة غير بعيدة منه تدخن على متكإ كبير ، بجوارها تابعة واقفة ، فإذا بها سيدة مقوسة الظهر ، مجعدة البشرة ، تضع النظارات الذهبية على عينيها ، وتلبس لبوسا قاتما . فتقدم نحوها وقبل يدها التحية ، ودعا لها بطول العمر ودوام الخير . ولما تم التعارف بينهما تركهما نور الدين بك ، وخرج لشأنه . وتكلمت السيدة فأظهرت « لعم متولى » سرورها بمقدمه ، ورغبتها فى سماع أحاديثه فخفض الرجل من بصره ، وأخذ يجمع فى فكره رواياته وحوادثه ، ثم رفع رأسه ، وبدأ يفيض بما عنده بلسان طلق ولهجة مؤثرة خلبت لب السيدة . فلما أتم حديثه غمرته بعطاء كبير لم يكن يحلم به ، وأحاطته بضروب من الإجلال أذهلته وأخجلته ، فخرج ولسانه يردد كلمات الشكر والولاء لها ولأسرتها . وما كاد يصل إلى حديقة الحريم ، حتى أقبلت عليـــه طائفة من الخادمات ، أخذن يحمن حوله ، ثم جعلن يتبركن به ماسحات

أيديهن بجلبابه ، وطلبن منه أن يبيع لهن شيئاً من بضاعته ، فجلس على الأرض مغتبطاً ، وفتح قفته العتيقة ، وأخذ يبيع لهن حتى نفد كل ما عنده . فقام من فوره إلى الجامع وصلى أربعين ركعة ؛ شكراً لله على عطيته الجزيلة .

* * *

منذ ذلك اليوم أخذ « عم متولى » يقصد دار « نور الدين بك » حيث يُقابَل فيها بالترحاب والإجلال ، وتُغدَق عليه النعم الوافرة . فتغير حاله ، وصار يمشي مشدود القامـــة ، لا يتكلم إلا بصوت جهْورى . واستأجر غرفة حسنة الموقع ، جديدة الأثاث ، واستبدل بالجبن والكرات والفجل : الأرز والخضر كل يوم ، واللحم مرتين فى كل أسبوع . واستطاع أن يضخم عمامته ويطيلها ، وأن يوسع أكمام جلبابه ، وأن يلف حول كتفه مطرفاً من الكشمير الرخيص ، وأن يحتذى المركوب الأحمر اللامع ، ويتمنطق بالحزام الحريرى ذى الهداب الطويل . ثم ترك رويداً حرفة البيع ، وتخلص من حياة التطواف المتعبة ، ونعم بالنوم الطويل الهنىّ ، وجعل يتصدق على الفقراء بالعطايا الطيبة ، فعُرف بينهم بنصير البائسين . وأمكنه أن يذهب إلى المساجد فى أوقات فراغه ، ليحضر دروس الوعظ والإرشاد ، فيتسنى له أن يلقيها بعد ذلك على مسمع من الهائم والدة

« نور الدين بك » .

وذاع صيته فى الحى ، فتهامس الناس به ، وجعلوا يتناقلون أخباره . لقد اختفى شيخ « عم متولى » بائع اللب والفول السودانى ، رجل الفاقة والضعف ، وحل مكانه « الدرويش الكبير » ! . . .

* * *

وبينما كان رهط من أتباعه جالسين أمام دار « نور الدين بك » منتظرين حضوره ، تكلم أحدهم قائلا :

« أتظنون ياجماعة أن « عم متولى » رجل صالح فقط ، يحسن التحدث عن الإسلام فى أسلوبه البليغ ؟ . . . »

فسأله أحدهم :

« إذن من تظنه يكون ؟ ! . . . »

فأجاب الرجل فى تحمس :

« إنه ولى من أولياء الله . . . قطب من الأقطاب العظام ! »

ـ ومن أعلمك ؟ . . .

ـ أدم النظام فى عينيه قليلا ترنورا غريبا يشع منهما ، وهذا دليل الولاية . . .

ثم تنحنح وقتا ، وانحنى عليهم يهمس :

« لقد حدث لى معه حادث لم أخبركم به خشية ألا تصدقونى !! . . . »

فقال الجمع وقد تدانوا حوله :

« تكلم ! . . . تكلم ! . . . »

كنت أسير معه مرة فى حارة « سيدى شاويش » والوقت مساء لا ينير الحارة إلا مصباحان من النفط نورهما خافت ضئيل ... وبغتة هب الهواء شديدا فأطفأ المصباحين وإذا نحن فى ظلمة حالكة ، فاعترانى جزع مفاجىء ، وأمسكت بيد «عم متولى» وشددت عليها . فغمغم : لا تخش شيئا ، نحن فى حماية الله ! . .

وبينما الجمع يصغى لحديث المتكلم ؛ إذ بدا رجل من الحلقة ، وأنشأ يقول :

« الآن يتيسر لى ، وقد سمعت حديثكم ، أن أجهر بما أعلمه عن ذلك الولى الصالح الذى عاشرناه كثيرا ، ولم نعرف من حقيقة شخصيته إلا قليلا . . .

فحول الجمع أنظارهم إليه ، وقال له أحدهم فى شوق وتطلع :

« وماذا تعرف من شخصيته ؟ ! . . . »

فقال الرجل بصوت حبيس ، وقد احتقن وجهه :

« إنه المهدى . . . المهدى المنتظر » ! . . .

فاشرأبت الأعناق للرجل ، وتهامس الناس :

« المهدى ! . . . المهدى المنتظر ؟ ! . . . »

وتابع المتكلم حديثه بلهجته السابقة ، وصوته يرتجف انفعالا :

« لقد شاهدت سيف النبوّة فى صندوقه ، ولما لمسته بيدى استطعت أن أشفى ولدى ، ولدى الذى عجز الأطباء عن مداواته وكان على شفا الهلاك ! . . . »

واندفع الناس يتسابقون فى سؤال الرجل ، وانطلق الرجل يجيبهم فى إسهاب وتفصيل .

وكثر اللغط ، وازدحمت الحلقة بجموع جديدة جاءت تسأل ما الخبر ، وتصغى إلى حديث المتكلم عن سيف النبوّة وكرامة « المهدى » الذى بعثه الله ثانية هاديا للبشر .

وظهر فى ذلك الوقت « عم متولى » من بعيد ، ولمحه الحشد ، فهدأت الجلبة ، وأسرع الناس يوسعون له طريقا بين صفوفهم المتراصة .

وجاء « عم متولى » يسير بمشيته المتئدة فى جلال ووقار ، ويبتسم لمستقبله ابتسامته الحلوة الهادئة ، فخشع الناس من حوله ، وأقبلوا عليه متزاحمين ، يقبّلون أنامله وأطراف وشاحه .

وتقدم الرجل الذى لمس سيف النبوة وقال :

« يا مولاى ! يا منقذ ابنى من الهلاك ! لقد عرفناك بالرغم من تسترك ، فأنت « صفى الله » بعثك سبحانه لهداية البشر ، أنت

خليفة النبي ، أنت « المهدى المنتظر » !

حدّق « عم متولى » فى وجه الرجل مدهوشا ، وقال :

« ماذا تقول يا رجل ؟ . . . أ أنت تهذى ؟ . . . »

— لن تستطيع إخفاء شخصيتك الكريمة عنا بعد اليوم ، نعم أنت « المهدى » ، خليفة النبي ، وحامل كلمة الحق بين الناس ! . . .

— اسكت ! . . . اسكت ! . . . فليس لى هـــذا الشرف العظيم ! . . .

— ألم تشف ابنى من الهلاك ؟ ! . . .

— أنا ؟ ! . . .

وتقدم الرجل الذى روى حادثة الحارة المظلمة ، وقال :

« ألم تستر الحياة بوجهك المضىء ؟ . . . »

— أنا ؟ ! . . . أنا ؟ !

وقال المتكلم السابق :

« إن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ زارنى فى الرؤيا ، كشف لى عن شخصيتك ! . . . »

فهمهم « عم متولى » فى صوت ضعيف ، وقد استند إلى شخص بجواره :

« أبو بكر الصديق كشف لك عن شخصيتى ؟ ! . . . »

ولاذ بالصمت وقتا ، وهو يحدق أمامه ؛ ثم أخذ يقول فى صوت المحدث نفسه :

« يا أولادى !. . . المهدى رجل عظيم ، أجل منى وأكبر... ما أنا إلا عبد صالح من عباد الله ! . . . »

ولم يطل جلسته ، بل عاد إلى داره مبكرا ، وهو غارق فى أحلامـــه ...

ولم يكد يتنفس صبح اليوم التالى ، حتى سمع « عم متولى » طرقا على بابه ، فقام يستجلى الخبر ، فإذا هو برجل معصوب الرأس ، هزيل الجسم ، يدنو منه ، ويتعلق بثيابه ، ويئن مستعطفا :

دعنى ألمس سيف النبوة من يدك الطاهرة :

— سيف النبوة ؟ ...

— خلصنى من آلامى يامولاى ... أشفق على من يديك الضعفاء ياخليفة النبى العظيم ! .

وأدخله « عم متولى » داره ، وأبقاه فى رعايته اليوم كله ، وهو يقرأ على رأسه طائفة من الأوراد . ولما دنا المساء أرقده بجواره ، وسيف النبوة تحت رأسه .

وطلعت شمس اليوم التالى على الرجل المريض ، فألفى نفسه منشرح الصدر ، موفور النشاط ، على حالة من الصحة لم يعهدها من

قبل ، فقام إلى « عم متولى » وأهوى على يديه يشبعهما لثما ، وصوته يجأر بالشكر والدعاء ...

ومضت الأيام ، فأصبحت دار « عم متولى » كعبة الناس من كل صوب ، يقصدونه استشفاء من أمراض أبدانهم ، ووساوس نفوسهم . وقلّ خروج « عم متولى » من منزله . فكان يقضى فيه جل وقته تائها فى أحلام لا نهاية لها ، فإذا صحا من هذه الأحلام أخرج سيفه ، ووضعه على ركبتيه ، ثم انطلق يحدق فيه بذهول ! ...

ويوما رأى « عم متولى » السيدة الجليلة والدة « نور الدين بك » تأتى لزيارته فى حفل من توابعها ، وما إن شاهدته حتى ركعت أمامه خاشعة ، وأخذت بذيل جبته ، وجعلت تقبلها وتقول :

« يا خليفة النبي العظيم ! ... لقد جئتك خاضعة ذليلة ، أطلب رضاك ! ... »

* * *

منذ ذلك اليوم حبس « عم متولى » نفسه فى حجرته ؛ لا يبرحها قط ، وكان تارة يستقبل زواره ، وطورا يقفل باب الحجرة بالمفتاح ولا يدع أحـــدا يقربه ، ويجلس مسندا ظهره للحائط ، ويسبل جفنيه . ويقضى على هذه الحال ساعات طوالا ، ثم يهب بغتة من غفوته ، وهو مضطرب محموم ، فيجرد سيفه من غمده ، وينطلق طاعنا

الهواء هنا وهناك ، وهو يقفز فى الغرفة صائحا بالشياطين أن اخسئوا . ويظل كذلك حتى يسقط على أرض الغرفة فاقد الوعى

وكثيرا ماسمعه الجيران يصيح هذا الصياح ، فيعرفون أن الولى الصالح فى ساعات خلوته ، يناجى أسراره العظام ، فيتجمعون حول بابه مرهفى الآذان ، تسرى فى نفوسهم الروعة والإجلال .

وظل « عم متولى » على هذا الحال بضعة أسابيع.

وكان أن شوهد مرة يخرج من حجرته مهو ولامشعث الشعر وعيناه متقدتان كالجمر المسعر ، يلوّح بالسيف يمنة ويسرة ... وانطلق إلى القهوة القريبة ، واندفع يخبط بسيفه فى الجالسين ، ويصرخ فيهم أن اختفوا أيها المرَدة الخاسرون ... فتألب عليه الناس يمنعونه .

وخر الرجل أخيرا بين رجال الشرطة ، وهو يهتف فى صوت ضعيف قائلا :

« الحمد لله ، لقد أديت رسالتى . وأتممت جهادى ... »

وتخاذلتْ قواه !...

حارس الجرن !...

أعرف « الشيخ جمعة » منذ كنت طفلا صغيرا . . . منذ كانت الأيام لهوا ومسرة . منذ كانت الحياة هبة خيالية من قساوة العقل أعرف « الشيخ جمعة » منذ ذلك العهد . وهو على حاله لم تتغير ملامحه ، ولم يتبدل حديثه . أعرفه وقد كان يروى لى قصة «سيدنا سليمان » وما جرى له مع النسر الهرم ، الذى عاش ألف ألف سنة. تلك القصة التي مازالت أسمعها منه الآن بتفاصيلها وعباراتها ، فأتذكر عصر الطفولة الجميل ، عصر السذاجة الطاهرة . لقد كبرت ونما عقلي ، فأصبحت أجالس « الشيخ جمعه » لألهو بوقتي معه، فأستمع لقصصه الخرافية ، بلذة مصحوبة بتهكم ، وكنت فيما مضى أجلس قبالته وعيناى حلقتان فى وجهه — ذلك الوجه المخطط بالتجاعيد — أرقب شفتيه الهادئتين ، ترسلان الألفاظ وكأنها السحر الحلال. ولم أكن أقابله إلا مرة فى العام ، وذلك حينما أذهب إلى الضيعة لأقضى بها وقتا للراحة . وقد مرت السنون الطوال ، وتغير كل شيء على الأرض ، إلا الشيخ جمعة ، فهو هو ، الرجل ذو العمامة الحمراء ، والجلباب الواسع الأكمام . هو ذو العينين البراقتين ،

والابتسامة العذبة ذو المشية المتمهلة ، والصوت الرقيق !.. هو الذى يقوم من النوم مبكرا ، ميمما صوب الجامع ؛ ليؤدى فريضة الصبح قبل شروق الشمس . وهو الذى يقضى معظم نهاره فى المصلى الواقع على شاطىء الترعة ، يسبح ويقرأ الأوراد ، ويؤدى الفرائض .

إلى ذلك المصلى كنت أذهب ، فأجلس بجواره وأستمع له ، وهو يقص على حكايات « السيد البدوى » الذى حارب الجيوش ، قبل أن يولد . وقصة جذوة النار التى طارت من جهنم وحلت بأرضنا منذ آلاف السنين ، فأرسل الله عليها ماء البحور كلها لتطفئها وتمنع أذاها ، وهى مازالت متأججة كما كانت ، تنذر الناس بشر عظيم .

لا أنسى إلى اليوم تلك النظرة المملوءة بالاسترحام وذلك الوجه المستعطف الباكى ، وهو يقول :

« إذا كانت جذوة النار الواحدة لا تستطيع بحور العالم جميعها أن تخمدها ، فكيف تكون جهنم التى أعدت للكافرين ؟ » .

وكنت أحمل له فى بعض الأوقات « كتاب ألف ليلة وليلة » ، وأقرأ له حكاية « السندباد » وحكاية « مدينة النحاس » . فكان يصغى فى شغف إلى حديثى ، وابتسامته العذبة تترقرق على وجهه ، وإذا ما قرأت له قصص « هارون الرشيد » قال :

« هذا ملك من ملوك الإسلام حارب الجن والإنس معا ! ... »

وإذا ما رويت له من شعر « أبي نواس » أو « عمر بن أبي ربيعة » في الغزل ، قال :

« هذا شعر سيدى « عبد الرحيم البرعى » يمدح الحضرة الإلهية ! »

يسمع الشعر ، وهو مأخوذ بطلاوته ورقة رويه ، مسحور بما فيه من المعاني التي كان يحملها دائما على محمل التمجيد لله عز وجل ، فيهتز رأسه ويتلوى خصره حينما ترن الكلمة الخلابة في أذنه ! . . .

فإذا سافر « الشيخ جمعة » إلى « القاهرة » ليزور الأولياء كان مبيته في منزلنا . وكثيرا ما كنت أطالبه بالإجابة عن أسئلة أعلم أنها بعيدة عن أفق تفكيره ، فكان يجيب عنها في سذاجة وسهولة عظيمتين .

قلت له مرة ، وكان الوقت مساء ، وقد أشرت إلى مصباح كهربى أمامنا :

« انظر يا « عم جمعة » إلى هذا المصباح الجميل ، وكيف يضيء وينطفيء بهذه السرعة الغريبة ، ألا ترى ذلك دليلا ساطعا على تقدم الإفرنج ومهارتهم ؟ . . . »

فلبث مليا ينظر إلى المصباح ، ووجهه المشرب بحمرة العافية لا يختلج ، ثم قال :

« اعلم يابنىّ أن هذه أسرار يعلمها الشياطين ، ولا يعلمها المؤمنون . والشياطين توحى بأسرارها الكفرة ... إن لهم الدنيا ولنا الآخرة ! ... » .

ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء ، وهو يقول :

« الحمد لله الذى جعلنا من المؤمنين ! ... »

ولم يكن يفارق المنزل أثناء وجوده فى «القاهرة» ، إلا ليزور المساجد وضرائح الأولياء . أو ليشترى الصابون والبن والسكر لزوجه . وكان إذا دخل الجامع يهرع إليه الناس من كل صوب وفج يقبلون يده ، ويلتفون حوله يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل الدين ، فيجيبهم ويفتيهم فى طلاقة ويسر .

لقد كان « الشيخ جمعة » فيما مضى خفيرا لجرن الضيعة ، يحمى الغلات من اللصوص ، ويقرع الصفيحة بعكازته العتيقة إرهابا للعصافير وكانت له ظلة من فروع الأشجار ، أقامها بجوار شجرة النبق الصغيرة يتفيأ ظلالها . فتقيه مطر الشتاء ، وشمس الصيف . هناك ينام نوما هادئا طويلا ، معتمدا على الله فى حراسة الجرن ، فإذا ماصحا ، وجاء وقت الأصيل ، قصد إلى الترعة ، وجلس على حافتها يراقب نساء بلدته ، وهن يملأن جرارهن ، فيبادلهن ألوان الأحاديث ول « الشيخ جمعة » أوقات صفو كثيرة يمتع فيها نفسه فيطارب

للغناء ، ويلتذ بسماع المزمار ذى الصوت الحنون . . . وعندما يحمى وطيس الزمر والغناء . ويشتد نقر الطبول ، يقوم « الشيخ جمعة » تمتلكه النشوة ، فيرقص فى غيبوبة وصمت ، ويده رافعة عكازته تلوّح بها فى الفضاء .

وللرجل حديث عن أيام شبابه لا يمله السامع . فكثيراً ما انطلق يصف هذا العهد ، ووجهه مشرق بتلك الذكريات الخالية ، وعيناه تلمع فيهما أحلام الفتوة والصبا ، يفيض فى ذلك كله بتلك السذاجة الريفية الصافية . فإذا ما أتم حديثه تنهد من أعماق قلبه ، والابتسامة المذبة تتضاءل رويداً على شفتيه ، ثم يقول فى حسرة :

« يا الله حسن الختام ! . . . »

الفهرس

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١١٩٢٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا – تليفون ٩٢٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة